مذاهب وشخصيات

شعراء الإسكندرية في العصور الإسلامية

تأليف عبد العليم القباني

تقديم الدكتور محمد طه الحاجري

مقدمة

بقلم الدكتور : محمد طه الحاجرى

المدائن كالناس : لكل مدينة طابعهـا وملامحهـا وقسماتها ، أو قل شخصيتها التى تنفرد بها ، كما ان لكل فرد من الناس شخصيته ، التى تميزه عن غيره وتحيطه بجو خاص به ، وكما تتكون شـخصية الفرد من عوامل الوراثة والبيئة وملابسات الحياة المختلفة ، كذلك الامر بالقياس الى المدينة ، وكلما كانت هذه العوامل اعرق وابعد ايغالا وأكثر تداخلا ، كان طابع شخصيتها أكثر انفرادا وأشد تميزا وبهذا نجد بين المدن ـ كما نرى بين الناس ـ مدنا أوساطا ، تقل الفروق بينها وتكثر وجوه التشابه فيها ، وأخرى بائنات بنفسها ، منفردات بما خط الزمن عليها من ملامح عميقـة معقدة متشابكة ، لأنه قد اجتمع لها من الاسباب والملابسـات فى خلال التاريخ الممتد المتطاول ، مالم يجتمع للجمهرة الكبرى ، ولأنه كان لها من قوة الحياة ما استطاعت ان تصمد به لاحداث الزمن وصروف الايام ٠

والاسكندرية من أعرق المدن تاريخـا ، وأكثرها فى أحداث الزمن مشـاركة ، وقد كان لها من موقعها ، وما أتاحة لها هـذا الموقع على مر القرون ما جنبها أن تنماع فى غيرها ، كما جعلها من ابرز المدن شخصية ، وأقواها طابعا ، وأشدها اثارة للباحث والمتأمل والمتطلع .

ولهذه الشخصية جوانبها الكثيرة ومظاهرها المختلفة ولكن الادب هو ولاريب أول مظاهرها ، اذ كان أشدها اتصالا بها وأقواها تعبيرا عنهـا

وتمثيلا لها ، وما شيء أدل منه ، في حقيقة الأمر عليها ، اذ كان انما ينبع من اغوارها البعيدة متغلغلا في سائر جوانبها .

وهذا الكتاب الذى يسعدنى أن أقدم له بهذه الكلمات يعرض جانبا من جوانب هذا المظهر ، وهو الشعر السكندرى فى العصر الاسلامى .

ولعل من حسن التوفيق ان يكون صاحب هذا البحث والمضطلع بعبئه شاعرا سكندريا مطبوعا ، والشاعرية والسكندرية صفتان أحسب أن لابد منهما في مثل هذه الدراسة لتمضى فى سبيلها على بصيرة ولتؤدى غايتها على هدى من الحس الدقيق والايمان الوثيق .

أما الشاعرية التى تتضمن الحس المرهف والذوق الفنى ، والقدرة على التغلغل في بواطن الاشياء والاندماج فى حقائق الحياة والاستغراق فى العوالم النفسية ، واستشفاف الخلجات الغامضة واللمحات العابرة ، فهى فيما أحسب ، من أول ما يمكن للباحث فى هذا الموضوع من بحثه ، ويضع يده على الحقائق المستترة ، هذه الشاعرية جدير بها أن تهيىء له جو الموضوع الذى يدرسه ، وتهبه القدرة على أن يعيش مع الشعر الذى يؤرخه بوجدانه ومشاعره . فهو منه فى عالم حى يناقله الحديث ، ويساجله القول ، ويشعر فيه بمعاني المودة والحب تغمر قلبه ، وتفيض على وجدانه فتجلو له كل شيء فيه .

وأما السكندرية ــ بما تربط بينه وبين المدينة التى يؤرخ حياتها الادبية برباط روحى وثيق ، وما تعكس من شخصيتها على شخصيته ــ فانها أيضا من أوثق الاسباب التى تمثل ما يقصد من أمر هذه الحياة الادبية فيها .

ان ارتباط الباحث بموضوع بحثه هو أول أسباب التوفيق فيما يعالج منه ، وهو فى مثل هذا الموضوع الفنى امر لابد منه . ولابد ــ فيما نحسب ــ ان نقوى هذا الارتباط حتى يصل الى حد الهوى الذى يمازج النفس ويداخل الروح ، ويصرف القوى النفسية فى تتبع أطراف الموضوع وتعقب اشتاته .

وقد اجتمعت للاستاذ عبد العليم القبانى هاتان الصفتان على أمثل صورة ، فهو شاعر مطبوع بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، وشاعريته أصيلة بكل ما تتضمنه من صفات ، وهو سكندرى صميم ، عاش حياة الاسكندرية فى أصل جوانبها ومارس صور هذه الحياة ممارسة متصلة بأعماق نفسه ، وأحب هذه المدينة حبا يصل به الى حد الفتنة بها . واحيانا

الى حد العصبية التى ربما جعلته يهدر سائر المدن وغيرها ، والتى نحس فى بعض مواطن هذا الكتاب اصداءها ٠

ولكن هناك صفة ثالثة لابد منها ولا معدل عنها فى معالجة هـــــذا الموضوع من موضوعات التاريخ الادبى ، وهى الصفة العلمية التى ينبغى أن تأخذ مكانها الى جانب الصفتين الأخريين متعادلة معهما ، مقدرة موقفها منهما ٠

ذلك أن هذا الموضـوع يعتمد ـ أول كل شيء ـ على استكشاف الآثار الادبية السكندرية التى طوتها القرون ، واستجلاء ملامحها وذلك هو العمل العلمى الاول الذى يحتاج الى قدر من الخبرة والمران والتجربة غير قليــل ، ثم بعد ذلك تتبع الاعمال العلمية من التحقيق والتصنيف وتتبع الصفات المميزة وتعرف العلاقات التى تربط هذه الاثار بعضها ببعض ، والعلاقات التى تصل ما بينها وبين ما حولها ، الى غير ذلك مما تفرضه طبيعة البحث العلمى الادبى الذى ينتهى بعد ذلك كله الى ابراز الصورة الادبية التى يراد عرضها ، وقد اجتمعت اجزاؤها وتلاءمت مقاديرها ، ودبت الحيـــاة فيها ، فاذا هى كائن حى يبعث الاعجاب والحب والنشوة ٠

وقد كنت أشفق على الاستاذ عبد العليم القبانى ، حيث كان يعــالج موضوعه من هذه المرحلة ، اذ كنت أخشى ان يكون شـــأنه شأن كثير من الشعراء الذين تستغرقهم شاعريتهم فلا تدع للوجهة العلميــــة مكانا فى انفسهم ولا عليهم فى ذلك فالشعر وحده جدير أن يكون فضيلة قائمــــة بنفسها ربما تضاءلت الى جانبها بعض الفضائل الاخرى ٠

ولكن الاستاذ القبانى استطاع بثقافته الأدبية الواســـعة وبصبره ودأبه واصراره على المضى فى سبيله الى الغاية التى يرجـــــوها أن يذلل الصعاب ويقتحم العقبات ، ويبلغ من المنهج العلمى هـــــذا المبلغ الجدير بالتهنئة على النحو الذى نراه فى هذا الكتاب ٠

كما استطاع الى جانب ذلك ان يوازن بـين العنصر الفنى والعنصر العلمى ، وبذلك أتاح للقارىء هذه اللوحة التى تجمع صور الحياة الادبية فى الاسكندرية فى عهودها الاسلامية ماعدا العهد الحديث ٠ ومكن له بذلك من ان يعيش فترة طيبة فى عهودها هذه ، كما قدم له طائفة من شـــعراء الاسكندرية وقد نفخ الحياة فيهم ٠ فمكن له من أن يصحبهم ويســـتمتع بصحبتهم وقد أعفاه مما تجشمه من عناء الدرس ومتـــاعب البحث التى طوعت له رسم هذه الصور ، وتمثل هؤلاء الشعراء فقد طواها دونه ٠

ولا يكاد ينتهي القاريء من متابعة الصور التي عرضها المؤلف الشاعر ويقف محزونا عند الصورة الاخيرة التي رسم بها الاسـكندرية وقد تضاءلت وانكمشت وفقدت كل معنى من معاني الحيـاة ، حتى يتطلع الى صورة بعثها وانتفاضتها في النهضة الحديثة . يمسح بها ماران على قلبه من الاسى . وهي صورة رائعة جدير بالاستاذ القباني ان يجلـوها بأدق ملامحها وفي اجمل معارضها .

القسم الأول

ملامح قديمة

- ١ -

انتهى الصراع بين الآشوريين والنوبيين بجلائهم جميعا عن أرض مصر فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد ، واستقر الأمر بأيدى اثنى عشر أميرا مصريا من حكام الاقاليم ٠

وكانت هذه أول قيادة جماعية لو قدر للذين قاموا بها أن يكونوا من المؤمنين بحق وطنهم عليهم ، غير أن نبوءة تحدث بها الناس فى ذلك العهد مؤداها (أن الامير الذى يشرب النبيذ المقدس فى قدح من البرنز فى عيد الاله « بتاح » سيرتقى وحده عرش الفراعنة بمعونة رجال من البرنز) ٠

ولقد ألقت هذه النبوءة فى أذهان الحاكمين المؤتلفين ظلالا قاتمةشغلت أذهان الأمراء الى حين ، ذلك أنه من الممكن أن يستأثر فرعون واحـــد بهذا السلطان دونهم لو مهدت الأقدار له الى ذلك سبيلا ٠٠

ثم دار الزمن دورته ، وأتى على الناس حين من الدهر نسوا فيـــه قصة هذه النبوءة ، لكن الذى حدث بعد ذلك كان غريبا ٠٠ فقد اجتمع الأمراء الاثنى عشر ليحتفلوا بالعيد فى معبد « بتاح » وأعد الكاهن الكئوس المصنوعة من الذهب ليصب فيها من نبيذ الآلهة ولكنه عندما راح يملؤها، اكتشف أن النسيان غلبه على واحد منها ، وبذلك وجد الأمير « ابسماتيك » نفسه بغير كأس ٠٠

وخشى « ابسماتيك » أن تفوته بركة الآلهة فتناول خوذته وطلب من الكاهن أن يصب فيها شرابه ، وأعجب الكاهن بسرعة خاطر الأمير وصب له الشراب فى الخوذة البرنزية ٠٠٠

وانتبه الأمراء على صدى النبوءة القديمة ، فها هو ذا النبيذ المقدس فى كأس من البرنز على شفتى الأمير ابسماتيك ٠

وأقبل بعضهم على بعض يتآمرون ٠٠ واســـــتقر رأيهم على نفى ابسماتيك الى مستنقعات الشمال ، وكان ان اختاروا له « راقودة » ، (١)

---

(١) راقودة ــ كوم الشقافة وكرموز الآن ٠

قرية على شاطىء البحر لتكون له مستقرا (١) ...

غير أن سفنا تحمل قراصنة من اليونانيين ألقت مراسيها بهذه القرية وعلى مقربة من منازل ابسماتيك نزل رجالها وعلى أجسادهم دروع من البرنز تلمع فى شعاع الشمس ...

كان هؤلاء الرجال لصوصا . ولكن الأمير المنفى رأى فى دروعهم البرنزية الرمز الثانى من رموز النبوءة ، فاستدناهم منه وقربهم اليه . وأكرم وفادتهم ، وقص عليهم قصته ، وعقد معهم حلفا ، ان يخلصوا له ، وقد استطاع فيما بعد بمعونة حزبه من المصريين أن يتغلب على رفاقه وأن يضع الأسس لبناء الاسرة السادسة والعشرين .

عرف الاغريق اذن راقودة قبل الميلاد بما يقرب من سبعة قرون ، وكان لابد لثقافتهم وأفكارهم أن تترك أثرا متفاعلا مع ثقافة وأفكار السكان الأصليين بحيث يمكن القول بأن الصورة الحضارية لهذه القرية أصبحت ذات طابع خاص تتميز به عن كثير من القرى المصرية .

- ٢ -

وامام راقودة هذه كانت جزيرة « فاروس » (٢) وأول وصف فى التاريخ لهذه الجزيرة انطلق من قيثارة الشاعر الخالد « هوميروس » فى النشيد الرابع من الأوديسة ، وذلك حيث يقول ...

هناك جزيرة فى البحر الصاخب تجاه مصر
يطلق عليها الناس اسم فاروس
تبعد بقدر ما تسيره السفن السريعة فى يوم كامل
عندما تهب خلفها ريح قوية ..
هناك فى الداخل ميناء ذو مرسى بديع

---

(١) هناك رواية أخرى تقول انه نفى الى المستنقعات «بوتوس» البرلس الآن ، ولكنا أخذنا بالرواية الاولى وأيا كان صواب احدى الروايتين فان من المعروف أن الاستيطان اليونانى بدأ ينتشر فى عهد هذا الملك وأن راقودة كانت مرسى تجاريا معروفا لهم وأن مستعمراتهم اتخذت من الدلتا مجالا فى ذلك العهد وكانت نفراتيس التى لاتبعد كثيرا عن الاسكندرية من أبرز هذه المستعمرات .

(٢) فاروس جزيرة أمام راقودة ومكانها الآن حى رأس التين ، وما يجاوره .

منه ينزل الرجال والسفن الرائعة الصنع الى البحر

بعد أن يكونوا قد أخذوا مئونتهم ..

من الماء الذى لا ينفذ منه ضوء الشمس (١) .

ومن قبل كانت فاروس سكنا لاله البحر « بروتيوس » وتتحدث عنه الأساطير فتقول : انه كان كريما يقيم الحفلات الساهرة فى ضوء القمر حيث تحتشد حوريات الماء فى الجزيرة لينعمن بمرح شاعرى ســـاحر ، وهناك أسطورة رواها « أروبيد » فى مسرحيته « هيلين » تقـــول ان « باريس » الفتى اختطف « هيلين » الجميلة زوجة « مينلاوس » وجاء بها الى « فاروس » فى نزهة ولكن الاله « بروتيوس » أبى أن يغمض عينيه على هذا الجموح الأرعن ، وفى الوقت نفسه أراد ألا يجرح شعور الضيف المغـامر ، فودع « باريس » الى السفينة بعد أن جسد طيفا من « هيلين » وتركه يسافر معه ، واستبقى « هيلين » الحقيقية فى الجزيرة حتى عاد زوجها من حروب « طروادة » فسلمها اليه عزيزة مكرمة (٢) .

و « مينلاوس » هذا يروى لنـا فى « الأوديســـة » كيف قذفت به الرياح الى « فاروس » ثم ارتدت عنه وتركته فى مجاهل من حيرته ، ثم كان انعطفت عليه « ايدوتيس » عروس البحر ، ودلته على الوســـيلة التى يستخلص بها نصـــيحة والدها « بروتيوس » حتى تأتمر الرياح بأمره ، ولقد حاول أبوها فى أول الامر أن يتخلص منه ، فتحول الى أسد ضخم ، والى تنين مهول ، والى شجرة وارفة الظلال ، والى ماء صاف لا يمكن أن تحتويه يد ، ولكن هذا كله ذهب سدى أمام اصرار « مينلاوس » وصموده .. واخيرا تكلم « بروتيوس » فأدلى اليه بما يجب عليه أن يصـــنعه .. ففعل .. وعندما تنفس الفجر ذو الانامل الوردية كانت الآلهة قد سخرت الرياح لمينلاوس ومن ثم انحدرت سفائنه فى طريقها الى « اسبرطة » (٣) .

واذن ففى « فاروس » تفاعلت ثقافة الوافدين اليها مع ثقافة أبنائها ، هذا بالاضافة الى ماضيها الأسطورى الجميل ، وكان من هذا التفـــاعل أن قامت بها حضارة تتفق الى حد ما وحضارة راقودة ..

---

(١) من ترجمة الاستاذ أمين سلامة للأوديسة .

(٢) خلاصة ترجمة للأستاذ على نور فى مقدمة كتاب الاسكندرية الذى صدر عن مصلحة الاستعلامات .

(٣) لخصنا هذه الأسطورة عن الأستاذ صديق شيبوب فى كتابه « معارك الاسكندرية » .

ولنقف قليلا حتى تنتهى احدى دورات الزمان فان عاصفة هوجاء هبت من بلاد « فارس » يقود أعنتها « قمبيز » الطاغية ، قد فغرت فاها فى نهم ، لتلتهم خيرات الأرض الطيبة فى وادى النيل ، ثم مالبثت بعد أن لوت أعناق الحاكمين أن أناخت بكلكلها على صدور المواطنين من سنة ٥٢٥ ق٠م٠ الى ٣٣٢ ق٠م٠ ، حتى اذا ما انحنت الرءوس من ذلة ومشى اليأس فى دروب القرى وطرقات المدن ، وتطلع الناس الى الغيب يتلمســـــون النجدة من خلاله ، تفتحت أسماع الارض على أبواق جيش لجب ، يقوده شاب مقدام لم يعرف الهزيمة قط ٠

ولقد رأت فيه « منف » منقذا لها من جـــــور الفرس ولهذا أعلن كهنتها عام ٣٣٢ ق٠م٠ أن « الاسكندر الاكبر » قائد هذا الجيش ، هو ابن أكبر الآلهة ، « ابن آمون » ٠

فتلك كانت نبوءة تحدثت بها امه اليه من قبل ثم تمشت فى خياله زمنا ، يفر تحت ظلالها من أصداء مناقشات غامزة جارحة ، كانت ترتفع فى بلاط أبيه « فيليب المقدونى » ثم ظلت تراوحه ، حتى اســـتقرت على شفتى كاهن آمون وهو يقدمها بين يديه عرفانا بالجميل ٠

ومن ثم تشبث الاسكندر بها الى الحد الذى دفعه الى قتل واحد من أعز أصدقائه عندما جرؤ أن يناقشه فى صحة هذه النبوءة فى أحد مجالس الشراب ٠

زار الاسكندر معبد آمون فى سيوه ثم ركب سفينة وانحدر مع مياه النيل صوب البحر ثم اتجه غربا الى جزيرة فاروس التى قرأ عنهـــا فى أوديسة هوميروس ورأى راقودة أمامها يفصل بينهما الموج فأراد أن يربط بين القريتين بأرض تصلح لاقامة المدينة الجديدة التى شاء أن يجعل منهـــا نقطة اتصال بين مصر والمدن الاغريقية عبر البحر ، وكان أن أمر بردم مابين راقودة وفاروس (١) وأصدر الاسكندر أمره الى « دينوكراتيس » المهندس أن يخطط المدينة العظيمة التى شاء أن يخلع عليها اسمه « الاســـكندرية » والتى قدر لها أن تصبح عاصمة لهذا الجزء من العالم ومركز الاشعاع لمـــا حولها مدى ألف سنة مما يعدون ٠

---

(١) بعض المؤرخين ينكر هذا ويقول ان الذى امر بالردم وبانشاء الهيبستاد هو «سوتير» بطليموس الاول ٠

وخطط المهندس الكبير شوارع المدينة مستخدما فى تخطيطها الدقيق الأبيض فيما يقول الرواة ٠٠ ويقولون ان أسرابا من الحمــــام هبطت على الدقيق وأتت عليه ٠٠٠ ويقولون فى قصة أخرى أن الاســـكندر نفسه هو الذى رسمها بالدقيق على مائدة فى الهواء الطلق فالتهمت الرســــم أسراب من الحمام العابر (١) وحين تشاءم بعض الناس ، وقالوا ان هذا نذير سوء ٠٠ أول العرافون رمزية هذا الحادث بالمعرفة التى ستنتقل من ينابيع العلم فى هذه المدينة الى مختلف بقاع الأرض ٠

- ٤ -

واقيمت المدينة وارتفع بنيانها وصعدت شـــــامخة تطرق أبواب السماء ، ثم طوى الموت صحيفة الاسكندر ، وهـــو بعد فى عمر الزهور ، وذهبت أعماله ضبابا فى مجاهل الزمن ، ونسى النـاس الآلاف المؤلفة من القتلى ، أولئك الذين ذهبوا ضحية بسالة جنوده ، ولقد أباد الزمن فيما أباد ما أقيم من نصب وتماثيل تمجيدا للقائد العظيم ولم يبق من كل هذا الملك العريض الا « الاسكندرية تلك المدينة الهادئة التى تحتضن الازرق الفضى فى اغراء فاتن بهيج ٠٠٠ »

وورث خلفاؤه من البطالمة « مصر » وانتهجوا فى الارتقاء بها وبالمدينة التى تحمل اسم رائدهم الكبير نهجا فيه كثير من الوفاء ، فاستقدموا اليها أكابر علماء عصرهم ، وخلاصة أدباء اليونان ، وكبار فنانيها ، وأنشـــئوا المعابد الضخمة ودار العلم المشهورة والمكتبة التى خلد ذكرها على الزمان ٠٠

وأصبحت الاسكندرية مقرا للحكم ، وفى أرجائها اختلطت أمشاج من الناس ، من المقدونيين ولهم عزة الملك وسيطرة الحـــــاكمين ، ومن اليونانيين ولهم كذلك ثقافتهم التى أنماها فيهم أساتذة علموا الدنيا من امثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وســـوفوكليس ، ومن المصريين ورثة ديانة رع وفلسفة امحوتب وتلاميذ كهنة منف وعين شمس ومن طوائف أخرى تركت آثارها فى تكوين الحضارة المشرقة ، وقد أصبحت الاسكندرية منذ العقد الثانى من القرن الثالث ق٠م٠ أعظم مراكز الحضارة اليونانية٠٠

وحضارة الاسكندرية وان كانت تعد امتدادا لحضارة آثينا الا أنها كغيرها من سائر مراكز الشرق الثقافية مزجت بين حضارة الشرق والغرب،

(١) لايهمنا هنا صدق الروايتين بقدر ما تهمنا دلالة الخبر المعنوية ٠

ثم احتلت مكان القيادة بين هذه المراكز جميعـــــا ، ذلك ان مركز مصر الجغرافى وازدهار اقتصادها ، وتشجيع حكامها للحركات العلمية والأدبية، جعل الاسكندرية جديرة بهذه القيادة ، بل انه بالقدر الذى كانت ترتفع به مكانة الاسكندرية ، كانت تهبط به مكانة أثينا ، وعلى أصداء من هـــذه الحضارة المتألقة ، قامت حياة مترفة ناعمة ، تركت ملامحهافى كثير مماوصل الينا من فن جميل أصيل ، كمـا أوحت أمسياتها الساحرة العبقة بعطور فاتنات الليل الى كثير من كتاب أوربا فى أوائل عصرنا الحديث بموضوعات شيقة نضرب لها أمثلة بقصة « أفروديت » وغيرها ٠

وكذلك نجد من الاتجاهات التى وضحت عند شعراء الاسكندرية فى ذلك العهد أن الشعر أصبح فى نفسه غاية تقصـــد لذاتها ومنهم الذين أوجدوا بحق ذلك المبدأ القائل بأن « الفن للفن » فلم يكونوا ليستكثروا مايبذلونه من وقت وجهد طويلين فى سبيل صقل الشعر أو فى البحث عن الأوصاف الجميلة أو فى ابتكار المحسنات البديعية الرائعة أو فى أحكام أوزان الشعر بطريقة لم يسبقوا اليها ، ولقد انتشرت هذه الاتجاهات وتجاوبت أصداؤها وكان لها تلاميذها المخلصون ، لا فى المدينة فحسب ، بل وخارجها فى مراكز الأدب المختلفة فى سوريا ومقدونيا وبرجام وغيرها ولم يكن الشعر وحده هدفا لهذه الثورة بل امتدت الى كل أنواع الفنون الأخرى ٠ كانت هناك ثورة على القديم ونزوع الى الجديد المشبع بروح الصراحة والحرية ٠٠

(أ)

شعر الاسكندرية فى العصر البطلمى

- ١ -

والآن وقد شهدنا بناء المدينة ولمسنا العوامل الاجتماعية التى تركت اثرها بلا شك فى انتاجها الفنى ، فان علينا أن نعبر الزمن لنعيش مع الآثار الفكرية للمدينة الخالدة ، ولندرك مدى مالهذه العوامل المختلفة من أثر فى ايجاد شعر جديد تتمثل فى بعضه النزعة الاسطورية ذات الاثر اليونانى الواضح ، ولعل أقرب الأمثلة التى بين يدى الآن والتى تعبر عن هـذا الاتجاه قصيدة « سارق العسل » للشاعر « ثيوكريتوس » من القرن الثالث ق.م .

(ذات يوم تسلل « اوروس » الى خلية نحل ليسرق أقراص العسل فلدغته نحلة فى يده ... وألحقت بأصابعه اصابة بالغة .

فأخذ ينفخ فى يده ويصيح .

ثم أسرع الى أمه الالهة « افروديت » وشكا اليها النحلة قائلا « كيف تستطيع هذه المخلوقة الصغيرة أن تلحق بى اذى كبيرا ؟ فضحكت الالهة وقالت :

« فيم العجب !؟

الا تسبب أنت أيضا جراحا دامية رغم ضآلة جسمك » (١)

وفى قصيدة « الصياد » للشاعر « موسوخوس » الذى عاش فى أواخر القرن الثانى ق.م نلمح ظلال العاطفة المتقلبة التى تكاد تكون سمة من سمات الخلق الساحلى ، وفى الأسطر الثلاثة الأخيرة منها نكاد نحس التنهيدة العميقة التى يطلقها السكندريون المعاصرون عندما لايجدون مناصا من الرضوخ للأمر الواقع ، كما نشهد فيها بعامة تأثير البيئة الساحلية وانطباعات مظاهرها :

(عندما يداعب النسيم صفحة البحر الازرق
يفرينى ماؤه الهادىء فانسى جمال البر وبهجته

---

(١) ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة فى كتاب شعر الرماة .

فاذا ما هاج واضطربت أمواجه .

فسرعان ما أذكر اليابسة وتحلو مناظرها فى عينى .

واشتاق اليها .

ان حياة الصياد لقاسية .

مأواه السفن ... وعمله فى البحر .

وأمله وراء الاسماك الهائمة

- ٢ -

وكما ندد شاعر الاسكندرية الشعبى « بيرم التونسى » فى العصر الحديث بالزواج الملكى أيام « فؤاد الاول » فى قصائد شعبية مشهورة (١) وكان جزاؤه النفى من البلاد فاننا نجد كذلك شبيها فى الاسكندرية القديمة حيث ندد الشاعر السكندرى « سوتاريس » بزواج بطليموس الثانى وكان جزاؤه ان غرق فى البحر حيا .

وتلك سمة أخرى من سمات سكان السواحل ، وهى الجراة فى التعبير الى حد عدم المبالاة بالعواقب ، التى تبدو قسوتها واضحة أمام أعينهم وكذلك اتجه كثير من شعراء الاسكندرية فى ذلك العهد الى التغنى بجمال الطبيعة الريفية وهدوئها .

كرد فعل لما تتركه ضجة المدينة الصاخبة من تأثير فى أعصابهم المتوترة ، بل وشارك بعضهم الفلاحين فى التغنى بالمواسم المحلية ومن القصائد التى نظمها ثيوكرانيس واحدة تقوم على الحوار نقتطف منها هذه الفقرة التى تصلح أن تكون نشيدا للحصاد ...

(أى ديمتير :

يا ربة الفاكهة والقمح الوفير .

ساعدينا لنحصد القمح بلا مشقة .... ولا عناء .

---

(١) نذكر هنا مطلع قصيدتين لبيرم التونسي في هذا الموضوع وهما :

(أ) البامية فى البستان تهز القرون وجنبها القرع الملوكى النضيف

(ب) البنت ماشية من زمان تتمخطر والغفلة زارع في الديوان قرع أخضر

باركى المحصول واملئى البيادر .

وانتم ياشباب .

اخلصوا فى أعمالكم .. واستيقظوا مع الطير .. فى الصباح المبكر
لا تتوقفوا الا اذا حمى الحر اللافح .

ولا تناموا الظهيرة ، بل ارقبوا ريح الشمال

ياربة الفاكهة والقمح الوفير .

باركى المحصول ... واملئى البيادر ..) (١)

- ٣ -

ومن اشهر شعراء ذلك العصر « كاليماخوس » الذى نظم كثيرا من الشعر العلمى ومع ذلك فقد كان مجاله كبيرا فى الشعر القصصى ومن اشهر قصصه الشعرية « هيكالى وثيبيوس » فى ألف بيت وتدور حول سيدة عجوز قضى البطل « ثيبيوس » ليلة فى كوخها قبل أن يذهب لمنازلة « ثور مارثون » وعاد اليها بعد أن انتصر ليقدم لها شكره ، ولكن الموت كان أسبق اليها منه ..

وقد سخر هذا الشاعر كثيرا من شعره فى تملق الملوك ومدحهم كقصيدته المسماة « نشيد الى زيوس » وفيها يمجد « فيلاد لفوس » بطليموس الثانى وكقصيدته الجملية « خصلة من شـــعر بيرنيكى » التى تدور حول خصلة من شعر زوجة بطليموس الثالث وكانت قد نذرتها لمعبد الاله اذا ما عاد زوجها من سوريا سالما ، ولكن الخصــلة اختفت من مكانها فى المعبد فادعى فلكى القصر انها صعدت الى السماء ، ونظم الشاعر قصيدته الرقيقة مؤكدا ان الخصلة أصبحت بالفعل مجموعة من النجوم الزاهية ...

واذا كان للأحياء نصيب كبير فى مدائحه ، فان الموتى كذلك . لم يعدموا نصيبا من مراثيه ، ونتمثل هنا بمقطوعة من مرثية نظمها فى رثاء صديقه الشاعر « هيراكليتس » :

« ان الدمع ليتفجر من مآقى

---

(١) من ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة في كتاب شعر الرعاة .

كلما تذكرت ان الشمس كثيرا ما كانت تغيب
ونحن لا نزال نتابع حديثنا .
واذا كنت الآن أيها الصديق .
قد غدوت قبضة من رماد .
فان بلا بلك (١) باقية لن تمسها يد الموت .
قابض أرواح الجميع . » (٢)

- ٤ -

ومن الشعراء الجديرين بالذكر فى هذا العصر «أبولونيوس» صاحب ملحمة « بحارة السفينة ارجو » المنظومة فى ٥٨٣٥ بيتا (٣) والتى تمتاز بقوة التحليل النفسى وبراعة تصويره حب « ميديا » « لجاسون » بطل هذه الملحمة التى تدور حول ذهابه لأبيها الطاغية « آيتيس » فى طلب الجزة الذهبية وكان الملك قد جعل من هزيمة ثيرانه المخيفة ثمنا لها . ولقد وقعت ميديا — ابنة الملك — فى شرك حبه ، ودفعها هذا الحب الى أن تعطيه العقار السحرى الذى يمكنه من النصر وفى المقطوعة الثانية نرى كيف أبدع « أبولونيوس » فى تصوير الصراع الهائل الذى دار فى أعماق « ميديا » وهى ترى « جاسون » ذاهبا الى معركته القاسية مع الثيران ..

(كانت العذراء تختلس النظر اليه ....
حيث ألقت خمارها جانبا
ان قلبها ليحترق من الوجد
وروحها مدنفة كالحلم تتبعه أينما ذهب

---

(١) اشارة الى قصائد الشاعر المتوفى .
(٢) ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى فى الحولية الخامسة لآداب عين شمس سنة ١٩٥٩ .
(٣) يقول وول ديوارنت فى كتان قصة الحضارة أن فرجيل فى أنيادته نسج على منوال هذه الملحة فى شكلها وفى مادتها أحيانا وانه حكاها سطرا سطرا (الترجمة العربية الجزء الثالث من المجلد الثانى) .

ثم خرجت وروحها اسيرة الهموم
فلا يزال المنظر ماثلا امام ناظريها
أي انسـان كان ؟!
أي رداء كان يرتدى !؟ اى حديث خاضه ؟!
كيف كان يجلس على مقعده ؟!
وكيف اتجه نحو الباب !!؟
وكلما تستأثر بها الذكرى .... تخال أن رجلا مثله لم تجد به الدنيا ان صوته وكلماته المعسولة لترن فى اذنيها

لقد ملأ الرعب قلبها مخافة ان تصرعه الثيران
وفى غمرة شجنها ..
تجرى دمعة كبيرة على خدها ... اشفاقا عليه
وبينما هى تبكى ، اذا بها بصوت عال ... تقول
« لم يغلبنى الالم ؟ انا الشقية ...
ماذا يعنينى ان كان أبرز الأبطال أو احطهم سيلقى حتفه ؟
الى حيث القت ..
ومع ذلك فكم اتمنى أن ينجو .. ولا يضار
ليت هذا يحدث
ايتها الربة المقدسة .. هيكاتى ابنة بيرسيس
ليته يهرب من الموت ...
ويعود الى وطنه ...) (١) .

- ٥ -

ـ ولقد أقبل الشعراء السكندريون على (الا بجراما) اقبالا عظيما وبلغوا فيها حد الكمال ، ودخلوا بها قصور العظماء ، وبيوت الفقراء ، ورفهوا بها عن العلماء المكدودين ، كما كانت كأسا تدار مع أقدام الراح على المحتسين ، وهجاء لاذعا لا يسلم منه حتى الارباب .

(١) تفضل باختيارها وترجمتها الدكتور محمد محمود السلامونى الاستاذ بجامعة عين شمس

و « الابجراما » مقطوعات قصيرة أهم خصائصها التركيز والوضوح واصابة الغرض وكانت تكتب أولا على شواهد القبور ، ثم اتسعت بعد ذلك لكل الأغراض وقد استطاع « ميليا جروس (١) » أن ينفذ الى اعماقنا وهو يرسل هذه الابيات فى بســــاطة متناهية راثيا الطفــل « ايسيجنيس » فى احدى ابجراماته ..

(سلاما ايتها الارض .... ياأم الجميع

لم يكن ايسيجنيس حملا ثقيلا عليك

ليتك تضمين الآن رفاته

غير ثقيلة عليه ... (٢)

ولكن « ليونيداس » استطاع ان يضحكنا فى احدى ابجراماته على السيدة « مارونيس » التى رثاها فى سخرية بقوله ....

(ترقد هنا « مارونيس العجوز .... المحبة للنبيذ ، والمدمنة للشراب .. انها تنوح تحت الثرى

لا على أولادها .. ولا على زوجها ...

على أن القدح أصبح فارغا) .

والابجرامات التالية واحدة من ابجرامات الشراب وهى للشاعر « هيدليس » احد شعراء الاسكندرية الاوائل :

(فلنحتس الراح ... فســـأجد وأيم الحق .. أجل وأيم الحق فى رحاب بنت العنب ... جديدا ... مثيرا ... حلوا تجود به قريحتى

أغرقنى اذن فى قوارير النبيذ الخيوى وقل ...

انظم أشعارك المرحة يا «هيدليس» .

انى اكره أن اقضى حياتى عبثا

أعنى .. غير ثمل ..) (٣) .

---

(١) ميليا جروس شاعر سورى من مدرسة الاسكندرية .

(٢) من ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى فى الحولية الخامسة لآداب عين شمس ١٩٥٩

(٣) ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى واختياره .

على أن هناك ظاهرة غريبة جديرة بالتسجيل وهى أنى لم أقع فيما وقفت عليه من مراجع ، على شاعر واحد فى ذلك العصر من أصل مصرى خالص ، انما كانوا جميعــا ، أما من الاجــانب الوافدين الى الاسكندرية أو من السكندريين الذين ينتمون الى سلالات أجنبية وانهم جميعا كانوا لا يكتبون بغير اليونانية ...

وربما رجع هذا الى ان الأمية كانت تسود الغالبية العظمى من الوطنيين أو ربما كان الشعراء المصريون ينظمون بلغتهم الشعبية التى لم تكن العناية بها ــ فيما يبدو ــ كافية لحفظ أشعارها ، اذ كان تدوين الآداب من مهمة الخاصة الذين ينتمون بالصلة أو التودد الى الهيئات الحاكمة ذات اللسان الغريب والعواطف المغايرة ، هذا الى بوادر اضمحلال اللغة المصرية نفسها فى هذه الفترة تحت تأثير الضغط الثقافى الاغريقى والقوى الادبية والمادية المساندة له ، والتجاء كثير من الناس الى من يكتبون بالاغريقية فى أعمالهم التجارية وفى مراسلاتهم حتى الشخصى منها ، على أن هذا لا يمنع ان يكون هناك شعر شعبى قد دون على بعض آثار هذه الآونة ولم يصل اليه المعنيون بهذا الأمر بعد ، كما يمكن القول باحتمال وجود شعراء مصريين نظموا شعرهم باللغة اليونانية نفسها ولكنه لم ينل حظه من القوة أو من السبيل الى الظهور .

(ب)

شعر الاسكندرية تحت مطرقتى روما وبيزنطة

- ١ -

اسدل الستار على الفصل الأخير من مسرحية البطالة فوق وادي النيل وآثرت « كليوبترا » آخر ملكة على عرش الاسكندرية أن تموت بيديها لا بأيدى الرومان وبعد حياة مرت حالة كنسمات الصيف ، عاصفة كأعاصير الشتاء وانطلق الشعراء الرومانيون ينشدون أغنيات جارحة ، تنتفض بها الأهوال وينكفيء منها ضمير الانسانية ليملى على الزمن تلك الكلمة الحقة « ويل للمغلوب » ولعل اعف ما نظمه هؤلاء الشعراء قصيدة « هورانيوس » التى يتحدث فيها عن مصرع ملكة مصر فنستشف من حديثه مدى الخطورة التى كانت تحس بها روما ازاء « كليوبترا » سيدة وادى النيل ، ذلك حيث يقول :

(لقد كانت ملكة هوجاء ..

تدبر الخراب للكابيتول ، والدمار للامبراطورية .

غير انها وقد سعت الى أن تموت ميتة نبيلة .

لم تهلع من نصل السيف مثل ما تهلع النساء .

ولم تسع باسطولها السريع الى شطآن خفية .

بل انها اجترات على أن ترمق قصرها المتهاوى .

بعين .... ملؤها الهدوء .

وانها لمقدامة أيضا ..

اذ امسكت بالافاعى الشرسة .

لكى يمتص جسمها السم الزعاف .

وقد زادها الاصرار على الموت جراة .

فاستنكفت أن تحمل ، وهى متجردة من أبهة الملك .

على سفن القساة .

أو أن تساق فى ركب النصر الظافر .

انها امرأة ذات أباء) (١)

وكذلك قدر للمدينة أن تشهد مصرع القائد العاشق «انطونيوس» بعد اندحاره أمام مواطنه العنيد « أوكتــافيوس » وان تئن تحت أقدام الغزاة من الرومانيين ، أولئك الذين طربوا للنصر فانطلقت حناجرهم تغريدا بالفرحة الغامرة ، بعد أن كتبت لهم الافعى سلامة الامبراطورية من عدوتها اللدود :

(الآن ينبغي ان نشرب

وتدق الأرض بأقدام طليقة ٠

ونعد أرائك الالهة ... لأفخر المآدب ..) (٢)

- ٢ -

والرومانيون كما يقول أحد النقاد « قوم غزوا الدنيا وأعينهم فى الأرض فى حين كان اليونانيون يغزونها وأعينهم فى السماء يعلل بذلك أن الرومانيين لم يهتموا كثيرا فى مستعمراتهم باحيـــاء الفنون والآداب اذ كانت جهودهم تكاد تكون مقصورة على ضفاف « التيبر » وما يحيط به حيث ألقى الخلود بسمعه الى طائفة من الشعراء العباقرة عاشوا حينا من الدهر نجوما فى سماء الأدب اللاتينى ...

ونحن هنا لن نبحث فى الحياة العلمية والفكرية الا فى نطاق الشعر فلن نتعرض للفلاسفة والعلـماء اللاهوتيين من الذين ازدان بهم تاريخ الفكر السكندرى ، وحق للاسكندرية أن تفاخر بنبوغهم حواضر العالم فى هذه الفترة من الزمن ، بل سنقصر جهدنا فى تثبيت أقدامنا على هذا الطريق الذى اخترناه ، وحددنا اتجاهنا فيه ، فاذا ما تلمسنا مواقع خطواتنا على هذا الدرب الغامض ، أصبح من الهين علينا أن نتبين معالم الطريق ، والحق اننا بعــد أن أمضينا فترة مضنية فى البحث لم نجد بالاسكندرية شعراء فى ذلك العهد لهم من المكانة كالتى كانت لأسلافهم فى العهد البطلمى ...

---

(١) ترجمة الدكتور عبد اللطيف احمد في كتابه « مصر والامبراطورية الرومانية »

(٢) المرجع السابق ونفس الشاعر .

وانما نجد في الغالب شعراء عاشوا ظلالا باهته لصراع دامى الرؤى في مجتمع قاتم ، كما نجد أن بعض أشعارهم مشت تساير الدين ، تمهد له ، وتنظم بعض صوره في غير ما شاعرية مجنحة يمكن أن تحلق بنا بعيدا عن تراب المدينة (١) .

فاذا استمعنا الى القليل من الاغنيات التى تمثل الاتجاهات الأخرى من النوازع الانسانية وجدناها وقد وضعت فى اطار باهت لا يتفق مع ماللاسكندرية من مجد شعرى متألق وربما اعترضتنا أسماء شعراء لهم صلة حقيقية بالشعر ولكن هؤلاء يعتبرون فى الواقع امتدادا للعصر البطلمى ، ولهذا فاننا لا نكاد نسمع عن اسم شاعر جديد شق طريقه الى الخلود بعد المائة الاولى من الفتح الرومانى :

هذا الى جانب مجموعة أخرى كتبت باللغة الوطنية التى بدأت تتحرك فى ذلك العهد لتعلن عن نفسها ولكنها سرعان ما توارت وراء الجدران فلم يقدر لها أن ترى الشمس ...

الحق اننا نخرج من هذا كله وبعد أن يضنينا الجهد بحقيقة مرة مؤداها أن معظم منظومات الاسكندرية فى ذلك العهد ، قد استحالت الى هياكل جافة لا روح فيها ، فاذا ترددت نسمات حياة فى قليل منها ، فذلك لان الله قادر على أن يحى الموتى ...

- ٣ -

كانت الاسكندرية يومئذ خليطا من المصريين واليونانيين واليهود بجانب قلة من الطوائف الأخرى ، فعمل الرومان على اثارة أسباب الشقاق والفرقة بين هذه الجماعات ، وكان ان عاش سكان المدينة فى صراع دائم تلونه الدماء فى كثير من الاحيان ، وعلى ذلك ضمنت روما سيطرتها عليهم اذ لا توجد هناك قوات متجانسة يمكن أن تؤلف خطرا حقيقيا يستطيع أن يناوئها ، فالوظائف العامة — فيما عدا القيادية منها — أصبحت وكأنها حق مكتسب لليونانيين ، وهؤلاء لا يمكن اتحادهم مع الوطنيين الذين ظلوا ينظرون اليهم بعين الكراهية الموروثة والحقد الدفين ، ذلك لأن الوطنيين

---

(١) لجأ «أرتوس» الى استخدام النظم كوسيلة من وسائل عرض فكرته اللاهوتية ، كما نظم «ديدموس» الضرير بعض أوشيات الانجيل فاستمدت منظوماته القداسة من موضوعها وانا لا اعنيها في هذه الفقرة .

كانوا يعتبرون الأغارقة دخلاء ، ظفروا بكل شيء ، وحرموهم من كل شيء ثم هم يرونهم بعد أن انتهى حكم البطالمة ــ الاسرة التي كانت ترعاهم ــ قد ازدادوا فأصبحوا عين المستعمر الجديد التي يرى بها وسمعه الذي يسمع به ...

هذا ولم يسمح الرومان بطبيعة الحال بقيام جيش وطني قوي مشكوك سلفا في ولائه لهم ...

ولقد سهلت هذه العوامل من مأمورية الجيش الروماني الذي كان يرابط في « نيكوبوليس » على بعد بضعة أميال شرقي المدينة . ومن ثم استكان الناس فلم يثوروا على الظلم الا في فترات متقطعة لم تقو على أن تجتث جذوره ، واستحالت مصر كلها الى مخازن غلال للامبراطورية .

والحق ان الرومان لم يفرضوا لغتهم على الناس بل تركوا لكل من اراد الحرية في أن يكتب باللغة التي يرغب التعبير بها . فلم تكن اللغة اللاتينية لغة رسمية للادارة المحلية وانما كانت قاصرة على الجيش ولقد نتج عن ذلك عدم رعاية الدولة لهذه اللغات جميعا مما أدى الى هوان قيمة الأعمال الأدبية المكتوبة بها ، وقد اتجه الشعراء بعد ان افتقدوا المؤثرات التي يمكن أن تؤثر في كيانهم الأدبي الى نظم العلوم والمعارف في منظومات ليسهل على الناشئة حفظها وتلك ظاهرة نلمحها دائما في عصور الانحطاط الأدبي ، عرفناها في العصر المملوكي وعرفتها البلاد العربية في ظل العثمانيين حينما طالعتنا هذه العهود بمتون منظومة للنحو والمنطق والقراءات والفلك والعلوم الأخرى ...

على أن الاسكندرية فقدت بعد ذلك البقية الباقية من حريتها حتى احصيت على الناس حركاتهم وأغلقت معاهد العلم في فترات متلاحقة وسيق الشبان في كثير من الحالات الى القتل الجماعي كذلك الذي حدث يوم ان حلت بها نقمة « كراكلا » الامبراطور الموتور (٢١١ ــ ٢١٧ م) .

(٤)

ولقد وجدت المسيحية في ذلك العهد منفذا الى قلوب الناس ، بعد أن مهدت المحن لها الطريق ، وأصبح الناس في حاجة الى العزاء ، ينشدونه في ملكوت السموات ، بعد أن فقدت الأرض من قدرتها على أن تمنحهم اياه وربما ساعد على انتشارها بينهم ، ما تشابه منها مع

ديانة آبائهم من مثل الثواب والعقاب فى الحياة الآخرة . وخلود الروح ، ولما هناك من تشابه أيضا بين « حورس » الطفل و « أيزيس » الأم وبين « المسيح » و « مريم » عليهما السلام ، بل وبعد أن أصبح الاغريقى المنتصر « سيرابيس » ظلا ثقيلا لا تسنده القوة التى فرضته من قبل ...

واحست الوثنية بهذا الخطر الزاحف يتهدد كيانها ، فيما تلمحه من وفاء أصحاب هذا الدين الجديد لدينهم فنظم مؤلف كتاب « هرمس الأكبر » فيما ترويه السيدة ل . بوتشر (١) مرثية يتحدث فيها عن الوافدين من الشمال ويتنبأ فى حسرة بانتصار هذا الدين الغريب ولعله كان يبغى اثارة روح الحفاظ فى الشعب ليناضل عن دينه القديم .

(فواحسرتاه عليك يامصر

اذ سوف لا يبقى فيك سوى ظل ديانتك فلا يؤمن بها الاعقاب وسوف لا يدل عليك سوى تلك النقوش المحفورة على أعمدة مبانيك الشاهقة التى تشيد بأعمالك الباهرة .

ان قومك سيأتونك

من الحيثيين ، أو من أية قبيلة متوحشة اخرى .

وسوف يغادرك الله الى السماء .

وسيهجر الله والانسان أرض مصر) (٢) .

ويعود الشاعر فيتكهن بالمعارك التى ستدور بين أصحاب الدين القديم وهؤلاء الجدد فيقول ...

(اسمع ما أقوله لك أيها النهر المقدس .
ستمتلىء مياهك وينابيعك المقدسة بالدماء
سيصير عدد الأموات الذين ستبتلعهم أكثر من عدد الأحياء
والذى سيبقى حيا لن يعرف انه مصرى الا بلغته فقط .
وأما أعماله .. فستكون كأعمال المتوحشين (٣ ، ٤) .

---

(١) ص ٦٠ ج أ تاريخ الامة القبطية (مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٤٥٢١ د) .
(٢) المصدر السابق .
(٣ ، ٤) ربما راع الشاعر تقشف الدعاة الأولين للمسيحية واهمالهم مظاهر الزينة والنظافة التى عنى بها المصريون من قبل ....

ولكن الناس كانوا قد انطلقوا يؤمنون بالدين الجديد ، وكان على الوثنية أن تمسك بتلابيب الجموع التى بدأ ينتزعها هذا الدين ، فاتجهت مدرسة الاسكندرية وعلى راسها « افلوطين » الى القول « بأن الالهام هو الذى يكشف حقائق الاشياء وليس المنطق ، وان هناك أشياء أسمى من الفكر فى ادراك الحقيقة هى البصيرة ، أو هو الكشف ، وانه يمكن الاتحاد مع الله ، والاندماج فى ذاته بواسطة التقشف والزهد » وهو أتجاه يقرب الى حد ما مع الاتجاه المسيحى .

ولعل الصمود الذى اتصف به المسيحيون فى مواجهة العاطفة ، هو الذى حدا بخصومهم الى الاستعانة بنفس المؤثرات الروحية التى يستعينون بها ، فانه لامكان للمنطق المجرد أمام الايمان ، كما انه لامكان للمنطق أمام القوة ، غير أن هذا الصراع العنيف دار مع الزمن وانتهى به المطاف الى مأساة ذلك اليوم .. أن اطلت رءوس المؤمنين من أقبيتها لتعلن فى اصرار عن ايمانها فاصطدمت بالطغاة وعلى قمتهم « دقلديانوس » ٢٨٤ م .

ان أقسى أنواع العذاب ما أعجزك أن تصرخ ، حسبك عندئذ أن تئن ، أما أن تنظم الانين شعرا ، فان ذلك يكون ترفا لم تنعم الاسكندرية به فى عصر الشهداء ، وهى فترة من الزمن ، سميت بهذا الاسم لكثرة ما أهرق فيها من دم زكى طهور .

(٥)

ثم دار الزمن دورة أخرى ، ووجدت المسيحية المضطهدة طريقها الى الاستعلاء والظهور ، وما ان بدأ القرن الخامس حتى كانت الكنيسة القبطية لها مكانتها ثراء ونفوذا ، فكانت لها السفن التجارية التى تعمل لحسابها ، والضياع ذات الغلال الوفيرة ، وأصبح من حق أساقفة الاقاليم الحكم فى جميع القضايا التى يكون المدعى علبه فيها أحد رجال الكنيسة بل كان للأساقفة أيضا حق الاشراف على الادارة الحكومية فى أبرشياتهم ، فضلا عن ضرورة الحصول على موافقتهم عند تعيين الموظفين .

ومع ذلك فان المدينة المرتجفة لم تجد ظلا من سلام ، ولم يكن بها عاصم من تسامح نبيل ، ولقد التقت الاسكندرية يومئذ وجها لوجه بالحقيقة المرة التى تقول (ان الذى يقول آمن بما آمنت به والا دخلت

النار ، لا يلبث اذا ما أوتى القوة ، أن يقول لك آمن بما آمنت به والا قطعت عنقك) .

وكان ذلك اليوم أن دمر المسيحيون معبد « السرابيوم » ٤١٢ م وثارت المعارك فى شوارع المدينة بين المسيحيين والوثنيين ، وتبدو مأساة الفيلسوفة الرياضية البارعة الجمال « هباتيا » فى قمة الأدلة على مجافاة روح هذا العصر للمسيحية السمحة ذلك عندما قتل المتعصبون من المسيحيين « هباتيا » ٤١٥م وهى تدافع عن عقيدتها ومثلوا بجثتها أبشع تمثيل ، فى طرقات الاسكندرية المزدحمة بالاعين المتطفلة لرؤية الجمال الذبيح ..

- ٦ -

كان ذلك والوثنية فى الرمق الأخير ، ومع ذلك فان المدينة لم تستقر حتى بعد ان لفظت الوثنية آخر انفاسها ، بل ابتلى المؤمنون بمذهب دينى جديد آمن به البيزنطيون وأقروه رسميا فى مجمع « خلقدونية » ٤٥١ م ولا يهمنا وجوه الخلاف بين المذهبين ولا أيهما كان الحق معه ، وانما الذى يهمنا هو أن المستعمرين حاولوا فرض مذهبهم بالقوة وأن الهوة ازدادت اتساعا وان النار اشتد أوارها بما ألقى فيها من وقود ..

ولقد فرت جماعات من المسيحيين بدينها الى الصحراء حيث حياة تسودها الاشتراكية والشعور المطمئن نسبيا ، وحيث احتفظت المسيحية المصرية فى هذه الأديرة بالكثير من تراثها الأخلاقى والدينى والعلمى بل وازدهر بداخلها الكثير من ألوان هذا التراث أما المدينة فيكفينا أن ننقل هذه الاسطر التاريخية التى أوردها « بطلر » والتى تصف كيف مات « ميناس » وهى قاعدة يمكن تطبيقها على آلاف شهداء ذلك العصر مع اختلاف فى التفاصيل ...

« وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل نيرانها على جسمه حتى سال الدهن من جنبه على الأرض ، واستمر الرجل صامدا ، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس أثقل بالرمل ثم ذهبوا به الى البحر حتى اذا اقتربوا منه عرضوا عليه الحياة اذا هو آمن بما أقره مجمع خلقدونية ...

فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة ··· فرموا به فى البحر فمات غرقا » (١) .

هكذا كانت حياة المؤمنين فى الاسكندرية تحت مطارق الحكم البيزنطى فكيف يمكن أن يزدهر الشعر فى ذلك الجو الخانق القاتل ؟

وكيف يمكن للشعراء ان يعزفوا على قياثيرهم أغنيات الحب والجمال، فى حين صراخ الانسانية ينصب فى أسماعهم ويأخذ عليهم كل سبيل ··

لقد كان الليل ثقيلا الى الحد الذى لا يستطيع فيه الانسان ان يتنهد وما ان رأى سكان وادى النيل جيش عمرو بن العاص ا٦٤١م حتى أستقبلوه بترحاب كبير وأشرق على المدينة صباح عهد جديد .

---

(١) فتح العرب لمصر تأليف بطلر وترجمة الأستاذ ابوحديد .

(ج)

شعر الاسكندرية من الفتح العربى الى بداية العهد الفاطمى

- ١ -

نفض السكندريون عن أعناقهم نير الولاء للامبراطورية المنهارة ٠ وانتهت مقاومة الحامية البيزنطية بمهد قطعه المسلمون على انفسهم لعل ألمع ما فيه من نقاط ما تمثله هذه الأسطر المشرقة ٠

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وبرهم وبحرهم ... لا يدخل عليهم شيء ، وعليهم ما جنى لصوصهم ، وان نقص نهرهم عن غايته ، رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم فله مثل مالهم ، ومن أبى منهم ، واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه » ٠ وبهذا ورث العرب مصر وبالتالى الاسكندرية بكل ما فيها من مجد تليد ، وآثار باقية ، وطرق منورة ، ومساكن طيبة ، الأمر الذى أغرى عمرو بن العاص أن يسكنها ، فكتب فى ذلك الى عمر بن الخطاب يستأذنه ، وكان عمرو قد وصف البحر للخليفة من قبل بقوله « انى رأيت خلقا كبيرا .. ان سكن فرق القلوب .. وان تحرك ازاغ العقول .. يزداد فيه اليقين قلة .. والشك كثرة » ٠ ولعل هذا هو السبب فى أن عمر بن الخطاب أبى على عمرو بن العاص أن يحقق رغبته بأن يتخذ منها سكنا وكتب اليه « انى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء فيه بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » ٠٠ فتحول عمرو الى الفسطاط ، وبالتـــالى بدأت الاسكندرية تتنحى عن مكانتها الموروثة للعاصمة الجديدة ٠

والواقع أن عمر بن الخطاب كان بعيد النظر فى عدوله عن اتخاذ الاسكندرية ذات الطابع الســاحلى فى عاداتها وميولهــا ، والمغرقة فى مسيحيتها عاصمة لمصر الاسلامية .. ولم يكن من مصلحة العرب ، اتخاذ عاصمة بحرية لملكهم الجديد ، وهم الذين لم يتمرســوا البحر ، ولم يعقد بينه وبينهم رباط من مودة والفة ، هذا الى تطرق موقعها فى دلتا النيل وبعدها عن بقية بلاد القطر بحيث لا تصلح — من وجهة النظر العربية — ان تكون نقطة ارتكاز تدار منها الدولة .. ولم تكن الاسكندرية بعد هذا سلاما خالصا ، بل تلقت من الروم بعض الهجمات التى استطاع العرب ردها ، ومن ثم عنوا بتحصينها واقامة دار للصناعات البحرية

فيها ، مالبثت أن اخرجت هذا الاسطول الذى رد الروم فى معركة ذات الصوارى . وهى أول معركة بحرية كبرى انتصر فيها العرب على الروم .

- ٢ -

ولقد شغل الحكام العرب بعد مضى وقت قصير من الفتح بالقضاء على بعض الثورات المحلية التى نشبت بين سكان البلاد من جهة ، وبين قوات الحكومة من جهة أخرى ، وقد استمرت هذه الثورات فيما بعد بشكل منقطع بل واشترك فى بعضها السكان من العرب أنفسهم ، وبخاصة بعد أن أصبحوا ملاكا ، وبعد أن رفعت أسماء مستثمرى الأرض منهم من عداد الجنود ، واضطرت الدولة الى فرض الخراج على الجميع

كذلك شغلتهم الخلافات الحزبية التى قامت بين العلويين والأمويين وبين الامويين والعباسيين انفسهم على التوالى ، اذ كان للقبائل العربية هواها مع أطراف هذه الخلافات .

ولا شك ان شعرا باللغة الشعبية قد قيل فى ذلك العهد ، سواء أكان منظوما باندفاعات عاطفية فردية أو تعبيرا عن شعور جماعى ، ولكنى لم استطع الوقوف عليه ... ربما لجهلى بهذه اللغة ، أو لأن أصحابها لم يعنوا بترجمة هذه الاشعار ونشرها أو لعوامل أخرى طبيعية أفسدت أوراق البردى المخطوطة عليها هذه الآثار .

غير أن القليل الذى وصل الينا يدل دلالة واضحة على أن ثمة نهضة أدبية قامت بين الأقباط فى منتصف القرن السابع الميلادى واستمرت حتى نهاية القرن الثامن ثم لم تستطع هذه النهضة ان تساير التيار الثقافى العربى الذى بدأ ينشر ظله على البلاد ولا أن تصمد امامه ..

ولعل من أسباب هذه الصحوة الشعور النسبى بالحرية فى ظل الحكام الجدد يضاف الى هذا انتشار صناعة الورق ووفرته ثم تخفيف الواجبات الدينية والعملية على الرهبان والسماح لهم بالقرارات الدنيوية، ولعل أجمل أثر أدبى من آثار هذه الفترة استطعت الوقوف عليه هو ما تمثله قصيدة « ارخليدس وسنكلتيكى » وهى قصيدة شعرية فى حوار ، ويمكن ايجاز ما تبقى منها فى هذه المشاهد التى سننقلها هنا

والتى نمهد لها بموجز للقصة التى تدور القصيدة حولها وهى مستمدة فى أصولها من قصة شعبية سابقة .

- ٣ -

كان « أرخيلدس » ابنا وحيدا لامه « سنكلتيكى » التى أرسلته بعد وفاة أبيه فى رحلة بحرية يرفه بها عن نفسه ولكن السفينة التى أبحر عليها غرقت ولم ينج من ركابها سواه .. وألقت الأمواج «بأخليدس» فوق الشاطىء حيث وجد احدى الجثث التى طرحها البحر ، وأثر فيه مشهد الموت ، فقرر أن يترهب فى دير للراهب « أنبا رومانوس » حيث عاهد المسيح الا يرى وجه امرأة قط ، ووصلت أنباء السفينة التى غرقت الى الأم التى أيقنت انها فقدت وليدها الى الأبد ، وحاولت الأم الخروج من دوامة الحزن فأقامت فندقا للغرباء ..

واشتهر القديس « ارخليدس » بالتقوى والصلاح ، ولقد تحدث بعض الرواد فى ردهة الفندق الذى أقامته أمه عن القديس الجديد ، وكيف أنه أوتى القدرة الالهية على شفاء المرضى ، وبلغ حديثهم مسامع الأم التى تلمست فى أحاديثهم أنساما من مستقر ابنها الحبيب ، وقررت الأم أن تزور وليدها ، حتى بعد أن عرفت العهد الذى قطعه على نفسه ، الا يرى وجه امرأة قط ، فما دار بخلدها ان يطبق الأبن هذا العهد على أمه ، وأن يعتبرها كسائر النساء ..

ووصلت الى الدير ويعلم « أرخليدس » بوجودها ، فيدعو الله أن يتوفاه بالموت حتى تستطيع أمه أن تراه ولا يحنث هو بعهده ..

ويموت « أرخليدس » ويسمح رئيس الدير لوالدته أن تراه واذ يفجعها موت وحيدها فانها تدعو الله أن يلحقها به ، ويستجيب الله لدعائها .... فتموت وتدفن معه .

- ٤ -

هذه هى القصة التى نسجت القصيدة من خيوطها ، ولم أستطع معرفة شاعرها فان الذين نقلوها الينا ، لم يعنهم اسم الشاعر الذى نظمها والحق أننا حين ننسبها الى الاسكندرية لانستطيع أن نقول ، اننا نلتزم الدقة التامة التى تلزم المؤرخ ، فلا تزال تنقصنا الادلة التى تقطع

بسكندريتها أما الاعتبارات التى دفعتنا الى ترجيح هذه النسبة فأهمها ان الاسكندرية هى أكبر البلاد التى تتركز فيها ينابيع ثقافة ذلك العهد ، كما ان بالقصيدة بعض معالم البيئة المحلية وانطباعاتها من مثل اقامة فنادق للغرباء والسفينة التى تحطمت بركابها والبحر الذى اجتازته الأم فى سبيل الوصول الى ابنها ، وهى أدلة لاتفى تماما بحاجة الباحث عن الحقيقة ، ولقد ترددت كثيرا فى الاستشهاد بهذه القصيدة لولا اننى أشعر انه من الواجب أن يقوم كل من يتصدى لتاريخ حياتنا الأدبيـة بمحاولة ما فى سبيل ملء هذا الفراغ الذى يبدو واضحا فى تاريخ هذه الفترة من الزمن لا بالنسبة الى الاسكندرية وانما بالنسبة الى وادى النيل بأسره ، وهى فترة توافرت قوى مختلفة على نسيانها ، وأود قبل أن أبدأ فى عرض هذه القصيدة أن أنقل كلمة للأستاذ الدكتور مراد كامل، يلقى فيها الضوء على بعض خصائص الشعر القبطى ، وكيفية بنائه وطريقة القائه ، حتى يمكننا الالمام البسيط بالصورة التى كان عليها فن الكلمة المنظومة ايامئذ ، ذلك حيث يقول (ان الاشعار القبطية فى هذا العصر كانت تصـاغ فى أسـلوب وطنى بحت فلم تنتهج نهج الاشـعار الاغريقية ، كما ان الأبيات لم تكن مقفاه ولا موزونة الا فى المقاطع الرئيسية وكانت الكلمات الاغريقية الدخيلة قليلة ، كما كان يبدو فى هذا الشعر تأثير البيئة المحلية ، وكان الشعر لا يقرأ عادة وانما يلحن كما جرت العادة فى الشرق وكانت الالحان التى يلقى بها الشاعر يشار اليها بلحن مشهور كما هو متبع فى الترانيم فيقال مثلا ان هذه القصيدة موضوعة على نسق لحن اغنية كذا ...) (١) وبعد فان قصيدة « ارخليدس وستكلتيكى » التى نحن بصددها لم تصل الينا كاملة كما قدمنا وانما وصلت الينا فى اجزاء متفرقة قام بتنسيقها والربط بينها وترجمتها بعض الأساتذة من المهتمين بدراسة الأدب القبطى (٢) وقد قمنا بايجاز هـذا العمل الجميل ، الذى تبدو فيه العاطفة الدينية واضحة ، كما يبدو فيه الصراع بين عاطفية الامومة والشعور الدينى العميق جليا ومؤثرا هذا الى بساطة محببة فى التعبير والعرض ...

---

(١) صور من تاريخ القبط للأستاذ الدكتور مراد كامل .

(٢) موجز تاريخ القبط تأليف وليم ورل (الترجمة العربية)

ـ أ ـ

« تصل الأنباء الى « سنكلتيكى » بغرق السفينة التى تقل ابنهـا فتندبه وهى بين الشك واليقين فى موته » :

(أرخليدس .. يامن أحبه
ويامن لاسمه عذوبة فى فمى
وليس لى من أحبه سواه

يا اخوتى .. وياكافة معارفى

لتحزنوا ... ولتندبوا معى .. لوفاة ابنى الحبيب

الذى لاأعرف .. ماذا أصابه)

ـ ب ـ

« ويتناقل رواد الفنـدق ، الحديث عن هذا القديس الجديد ومعجزاته أثناء حديثهم عن وفاة صديق لهم » :

(آه لو تمكن من الذهاب الى دير « انبا رومانوس »

حيث القديس ... ارخليدس

ثم توسل اليه ليصلى الى الله من اجله

ليتم له الشفاء

لأن رب السماء ... معه)

ـ ج ـ

« وتتنسم سنكلتيكى عرف ابنها خلال هذا الحديث فتتوجه الى الرهبان بهذا الرجاء » :

(التمس منكم يا آبائى القديسين ، أن تخبرونى عن مكان هـذا الرجل حتى أذهب وأتوسل اليه عسى أن يشملنى برحمته .

اذ أنى مصابة بمرض دفين
لا أعرف له كنها منذ أمد طويل .

فاذا ذهبت وتوسلت اليه ...

فقد استرد صحتى ...)

ـ د ـ

« ولكن الرهبان يعرفون المهد الذى قطعه ارخليدس على نفسه فيجيبونها » :

(يا امرأة .....

اننا نضع عبئا على اكتافه .

وانت .. لا تستطيعين الذهاب الى حيث يقيم

ففى الطريق وحوش كثيرة

وفوق ذلك .. فان القديس ارخليدس

لا يقع نظره على وجه امرأة .. قط)

ـ هـ ـ

« وتصل الأم الى الدير وتبعث برسولها اليه مزودا بهذه المقطوعة » :

(اذهب وقل لأرخليدس ان والدتك بالباب تنتظر

لقد جئت اليك .. لأرى وجهك

حتى اذا مارأيتك ... فانى أموت .

تعال الى ياحبيبى .. لتطيب بذلك نفسى) .

ـ و ـ

فيبعث اليها ارخليدس برسالة يقول فيها :

(لقد عاهدت ربى .. ولا أستطيع ان احنث بعهدى

الا أتعدى حدود هذا الباب

وألا يقع نظرى ماحييت على وجه امرأة

فاذا مكثت هنا فاجعلى الدير ديرك

واذا رجعت الى منزلك ... ياوالدتى

فليتولك الرب ... بهدايته) .

- ز -

« فردت عليه سنكلتيكى برجائها الحار » .

(ياأرخليدس ... ياابنى الحبيب .
ان صخب البحار التى أتيت عبرها .
لم يسبب لى من الألم ... ما سببته لى كلمتك .
« لن يقع نظرى ماحييت على وجه امرأة ... !! »
يا ابنى الحبيب ..
ان الثديين اللذين أرضعاك ... ينتظرانك بالباب
فى شوق الى رؤياك) .

- ح -

« وتتكرر الرسائل بينهما ثم ينتهى الموقف بأن يستجيب الله رجاء الابن بموته .. ويسمح رئيس الدين للام بالدخول حيث تنكفىء على جثة وليدها وترثيه بمقطوعات رائعة نقتطف منها » :

ياكافة من انجبن ابناء تجمعن وابكين معى ..
لقد انجبت ولدا واحدا ، وأنا الذى أوردته حتفه ..
تتوق نفسى للتزود منك بنظرة اخرى ..
هى اثمن عندى من جميع كنوز العالم ..
فليعنى الرب ، وعليه القى همومى ..
أيتها النســاء ..
ياكافة من انجبن ابناء ..
تجمعن وابكين معى .. (١)

ولكم وددت لو أتيح لى الاطلاع على نماذج اكثر حتى يمكن الخروج بمحصـــول أوفى نتمكن به من مشاركة الآباء الاولين أحاسيسهم التى تمثلها الكلمة المنظومة غير انه لأسباب عديدة رأيت أن أكتفى بهذا الجهد المتواضع الذى قدمته على هذه الصفحات القلائل تاركا لمن هو أجـدر منى مهمة السير فى هذا الطريق .

(١) الترجمة لجماعة من الاساتذة باشراف الدكتور مراد كامل موجز تاريخ القبط تأليف وليم ورل .

واعود الى الشعر العربى فى هذه الفترة فأقول انى لم أستطع الوقوف على شعر سكندرى نظم باللغة العربية فى هذه الفترة التى امتدت الى أربعة قرون ولعل هذا يرجع أولا الى قلة المراجع ثم الى عدم سهولة البحث فى المراجع الموجودة سهولة تيسر للباحث أن يعرف متى وأين نظم الشاعر شعره كما انه يمكننا القول بأن هذه الفترة كانت مجال انسلاخ من اللغة الموروثة واندماج فى اللغة الوافدة ، وأن المواطنين كانوا فى مرحلة محاولة التعبير بالعربية عن حاجاتهم اليومية ، ولم تكن السنتهم قد لانت للأساليب الأدبية ذات الطابع البيانى الخاص ، هذا الى جانب أن اللغة القبطية ظلت طويلا بعد الفتح وهى أداة التعبير بين الناس .

ونحن نعرف أن الاسلام نفسه وهو الدافع الأول لاجادة التعبير بالعربية لم يبدأ انتشاره فى مصر الا بعد المائة الاولى ، كما اننا نعرف أن الشعراء العرب نزلوا بالفسطاط أو بالقطائع وحيث القادة والوزراء وذوو الثراء وأولو النعمة ممن يتحدثون بالعربية وربما كان هذا أيضا من أسباب افتقار كتب الأدب الى نماذج من شعر الاسكندرية العربى طوال هذه الفترة ، غير أن الذى حدث خلالها كان له الأثر العميق فى تكوين شخصية الشعر السكندرى فيما بعد ، ذلك أن موجات من المهاجرين قد وفدت الى المدينة لعل أعلاها مدا تلك التى حدثت سنة ١٩٨ هـ اذ بلغ عدد المهاجرين من الاندلسيين (الرابضين) خمسة عشر الفا فى مرة واحدة ، وربما كان هذا هو الذى مهد لهم احتلال الاسكندرية وانشاءهم لجمهورية منفصلة عن باقى القطر ، واذ كانت فترة الاحتلال هذه لم يمتد أجلها ، الا أنها أعطت الاسكندرية ـ لأمد طويل ـ صفة المدينة ذات الحكم المحلى شبه المستقل ..

ويبدو هذا واضحا فى العهود التى اعطيت لبعض الولاة .. اذ كانت تستثنى فيها الاسكندرية من ولاية الوالى على مصر ، أو ينص عليها ، وكذلك مهد هذا الوضع الطريق أمام كثير من العلماء المشارقة والمغاربة وبخاصة من الأندلسيين الذين توالى مجيئهم فيما بعد ، والذين نشهد الى الآن مزاراتهم فى المدينة ونعرف الكثيرين منهم أفضالهم فى التآليف الدينية والدنيوية ..

- ٧ -

ولما كانت الاسكندرية ثغرا من أهم الثغور الاسلامية فقد اتجه كثير من المسلمين وبخاصة من المغاربة الى المرابطة فيهـــا ، مع الجنود القائمين بالذود عنها يبثون فيهم الشجاعة ويعدون أنفسهم ليوم يقاتلون فيه فى سبيل الله ، وهى وجهة طيبة كان لهـــا صدى عميق فى نفوس المؤمنين ، ومن ثم راحت تغذيها أقوال نسبت الى التابعين وأتبـاعهم ، تحدثنا عن الاسكندرية ومكانتها فى أسلوب يستمد ظلاله المؤثرة من منابع العقيدة الدينية ، فهذا الامام السيوطى يروى لنا فى « حسن المحاضرة » ان عبد الله بن مرزوق الصوفى تحدث فقال (لما نعى الى ابن عمى خالد ابن يزيد وكانت وفاته بالاســـــكندرية لقينى موسى بن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد ـ متفرقين كلهم ـ يقولون أليس قد مات بالاسكندرية ؟ فأقول بلى •• فيقولون هو حى يرزق عند الله ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك) وينسبون الى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (أربعة أبواب من الجنة مفتحة فى الدنيا ، الاسكندرية وعسقلان وقزوين وجدة) (١) وكان يمكن أن يظل هذا الاحساس النبيل ، على ما فيه من جنوح عن الحقيقة ، ملهما كريما ، يهدى الناس الى الايثار ، ويحبب اليهم التضحية لولا أن انحرف بعضهم فاستكان الى الراحة ، وقنع من الجهاد بالذكر واكتفى من السعى وراء أسباب الحياة بانتظار مايجود به ذوو النيات الحسنة والحكام •

على أننا لايعنينا هنا هذا التحول بقدر ما يعنينا أنه أصبح عنصرا مؤثرا فى المجتمع السكندرى وبالتالى فهو رافد من روافد شعره

ويضاف الى هذا بقايا رواسب من ثقافات يونانية ورومانية وقبطية تفاعلت مع الثقافة العربيـــة والاتجاهات الأندلسية والمغربيـــة ومن ثم اندمجت هذه الكيانات فى مظهر واحد ، تمثل صداه الذى تأخر فى الرنين بعض الوقت فى هذا الشعر الذى سنتناوله فى الصفحات التالية •

وبعد •• فانى أحسب أنى قد كونت صورة تعبر على ايجازها عن التراث الحضارى الشعرى بالاسكندرية قبل عهودها الاسلامية وتمهـد لنا الطريق الى المدينة لنصل اليهـا ونلتقى بشعرائها ونعيش معهم فى ظلال هذه الموروثات جميعا ، بعد أن تمثلتهـا المدينة وأصبح أرباب البيان فيها يتحدثون بلسان عربى مبين •

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ا:

القسم الثاني

شعر الإسكندرية وملامح من الحياة فيها في العصرين الفاطمي والأيوبي

- ١ -

الليل يرخى سدوله على ساحل عدن فى حين يرسل القمر غلائله الفضية على ظلين أغرتهما هـــدأة الليل فانطلقـــا على الشاطىء الساجى يتلمسان الحنان فى نسماته ، وأشاعت الغربة الشفافية فى نفسيهمـا فراحا يتطلعان بأعين الشوق الى المدينة التى استلقت فى اغراء رائع هناك بعيدا على شاطىء بحر الروم ٠

وهتف أولهما ـ أبو بكر احمد العبيدى ـ من قرارة نفسه ٠

يا راقد الليـــل بالاســـكندرية لى
من يسهرالليل ـ وجدا بى وأسهره

وكان رفيقه ـ أبو العباس احمد الأبى ـ فى هذه اللحظة يتـأمل مواكب الغمـام ، وهى تسبح فى ملكوتها السـاحر ، فاسترجعته نفثة صديقه تلك وأثارت كوامن أشجانه ومن ثم أجابه بعد تنهيدة عميقـة ، وهو يرنو الى البدر المتألق فى صفحة الأفق ٠

وأشـــهد البدر مرتاحـــا لرؤيتـه
لعـــل طرف الذى أهـــواه ينظره

أى وفاء يحمله الشاعران لمحبوبتيهما المقيمتين هناك ٠ فى المدينـة الجميـــلة ـ الاسكندرية !! وأى شعور دافىء حنون ذلك الذى يشعر به السكندرى الغريب حين تقله أرض غير أرضه ، وتظلله سماء تتصاعد اليها أنفاس لاتشاركه مشاعره ؟

الحق أن لبنات الاسكندرية الهيفاوات ذوات الدل ، ولشوارعهـــا المضيئة الطرقات وقصورها الشامخة ذات العماد ، وخمائلها الفواحـــة بالعطر ، ولياليها ذات البهجة الطليقة ، سحرا أى سحر وأثرا بالغا فى نفوس أبنائها مبلغا لايمكن أن تستأثر به أية بقعة من بقـاع الفتنة فى العالم كله ٠

وربما وجدنا فى مقطوعة الشاعر السكندرى أبى الربيع سليمان بن

فياض ما يبرر هذه العاطفة الجياشة نحو أرض المدينة الغنية بذكرياتها ، الثرية بمواطن السحر فيها :

أرض سحبت وأترابى تمائمنـــــا
طفلا وجررت فيها ناشــئا رسنى
انى التفت فكم روض على نهـــر
أو استمعت فكم داع على غصن
كم لى بآلاف هاتيك المنـازل من
الف وسكان تلك الدور من سكن
ما اخترت قط على عهدى بقربهم
حظا ولا بعت يوما منــه بالزمن

- ٢ -

والاسكندرية وقتئذ فيما يقول ابن الأثير «مدينة تزخر بالبساتين الأنيقة ، والمتنزهات الفائقة ، ترتفع فيها القصور والجواشن الدقيقة البناء المحكمة الجدر والأبواب» (١) •

ومن أجمل معالمها المنار العظيم الذى فتن كثيرا من الشعراء الوافدين فتغنوا بقصائدهم فى وصفه كهذا الذى نقرؤه للشاعر أبى عبد الله محمد ابن أبى الحسن حفيد الأديب ابن عبد ربه صاحب العقد •

لله در منـــار الاســـكندرية كم
يسمو اليه على بعـد من الحدق
من شامخ الأنف فى عرنينه شمم
كأنه باحث فى دارة الأفق
يكسر الموج منه جانبى رجـــل
مشمر الذيل لايخشى من الغرق
للمنشآت الجوارى عند رؤيتــه
كموقع النجم من أجفان ذى أرق

كذلك كانت هذه المنارة مجالا لشعراء الاسكندرية مجتلى لابداعهم ومعرضا يتبارون عنده فى ابداء فنهم •

صعد الشاعران أبو الحسن على بن الدورى وابو الفتح بن قلاقس فوقها ذات مرة وهى تسمق فى شموخ واذ أخذتهما روعة المنظر ، اقترح ابن قلاقس على صديقه أن يصفه ، فاستجاب اليه وقال :

وسامية الارجاء تهدى الى السرى
ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
ليست بها بردا من الأنس صافيا
فكان بتـــذكار الأحبـــة معلمـــا
وقد ظللتنى من ذراها بقبـــــة
ألاحظ فيهـــا من صحابى أنجما
فخيل أن البحر تحتى •• غمامة
وانى قد خيمت فى كبد الســما

---

(١) صبح الاعشى للقلقشندى ج ٣ صـ ٤٠٨ •

ولقد طرب ابن قلاقس لهذه الأبيات وأعجب بشـــاعرية صديقـه فأنشد يصف المنارة ، ويصف كذلك شعر صديقه فيها :

ومنزل جاوز الجوزاء ·· مرتقيا — كأنمـــا فيـــه للنسرين أوكار
راسى القرارة ساميالفرع فى يده — للنون والنور أخبـــار وآثار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت — خيل لها ق بديع الشعر مضمار
ولم يدع حسنا فيــه أبو حسن — الا تحكم فيه ·· كيف يختـــار
على المنارة لمـــا حل ذروتها — بجوهر الشعر بحر منه زخـار
مازال يذكى بهـا نار الذكاء الى — أن أصبحت علما فى رأسه نار

والحق أن هذا المنار فى ذاك الوقت كان احدى عجائب الدنيا ، وقد كتب عنه ابن جبير الأندلسى فى رحلتـــه المشهورة فقـــال : «ومن أعظم ماشاهدناه من عجائبها ـ يقصد الاســـكندرية ـ (المنـــار) الذى هو آية للمتوسمين وهداية للمسافرين ، يقصر عنـــه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشـــاهدة له تتسع ، وأما داخله فمرأى هائل واتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن حتى ان المتصرف فيهـا ، والوالج فى مسالكها ربما ضل الطريق (١،٢) ·

- ٣ -

ومتنزهات الاسكندرية ذات الغدران التى تميس تحت ظلال أدواحها أوحت هى الاخرى لشعرائها بكثير من المقطوعات الجميلة وهذه واحدة منها للشاعر ابن مكنسة ·

ذات غـــدير خلتـــه — صرح زجـــاج مردا
ثم انثنى منعطفـــــا — مرتعشـــا · · مرددا
خاف من الريح وقد — هبت به ·· فارتعـــدا
كأنمـــا يد الصبـــــا — مـــدت عليـــه زردا

وهذه مقطوعة أخرى من قصيدة للشاعر ظافر الحداد يصف فيهـــا روضة على الخليج ·

والماء يبـــــدو فى الخليج كأنه — أيم (٣) لسرعـة ســـيره محفور

---

(١) مكان المنارة الآن حصن قايتباى ·

(٢) مابين المعقوفتين زيادة من الكاتب للايضاح ·

(٣) الأيم = ذكر الحية البيضاء ·

والروض في حلل النبات كأنما فرشت عليـــه ديابج وخزور
والزهر يوهـــم ناظريه بأنه ظهرت به فوق الرياض كنوز
فأقاحه ورق (١) وســـاقط طله در ونور بهـــــاره ابريز
وكأنما القمرى ينشد مصرعا من كل بيت والحمـــام يجيز

وهذه أبيات من قصيدة للشاعرة تقية الصـــورية في وصف احدى الرياض :

والروض مبتســـم بنـــور أقاحه لما بكى فرحا عليـــه غمامهـــا
والنرجس الغض الذى أحداقه ترنو لتفهم ما يقول خزامهـــا
والورد يحـكى وجنة محمرة انحل من فرط الحياء لثامها

ويبدو في هذه المقطوعة كلف الشاعرة بالمقابلة بين الابتسام والبكاء فى البيت الاول كما يبدو أثر طبيعة المرأة الشرقية من حيـاء وخفر فى البيت الثالث ٠

كما كانت هذه المتنزهات مسرحا للغيد الحسان يتنقلن بين أزهارها ويشعلن الوجد فى أفئدة روادها ٠ ومن الرسالة التى بعث بها القـاضى الأعز بن المؤيد الى على بن ظافر نستطيع أن نلمح كيف كان الجمـــال السكندرى فى ظلال هذه الرياض يثير شاعرية الشعراء من أبناء المدينة ٠

(تسايرت أنا والقاضى أبو العباس احمد بن يحيى بشاطىء خليج الاسكندرية من جهة القنطرة المعروفة بقنطرة الســـوارى وقد رقصت أشجاره على غناء أطياره ، وملأ لها ساقى الغمام كئوس جلناره ٠ فبينما نحن نتناشد من نفيس رقيق الاشعار ، ونتعاطى من كئوس رحيق الاخبار ونتعجب من سماء ذلك الماء كيف خلت من البدور ، ومن نجوم تلك الأزهار مع طلوع شمس النهار كيف لاتغور واذا بجوار هناك جوار ، وبدور من قبل السوارى فقلت :

لله أى بـــــدور من السوارى سوار

فقال أبو العباس :

من كل هيفاء جرسى الـ وشـــاح خرسى الســـوار

فقلت :

لاحت فحلت وحلت قلبى وعقد اصطبارى

---

(١) الورق بكسر الراء = الفضة ٠

فقال :

تنوب فرعـــا ووجها عن الدجى والنهـــار

فقلت :

فنـــاظراهـــا وقلبى ما بين راض وضـــار

فقال :

وخدهـــــا وفؤادى من جلنـــار ونار (١)

ويصف ظافر الحداد كيف التقى بطيف محبوبته فى احدى هـــذه الرياض بقوله :

وصادح فى ذرى الأغصان نبهنى منغفوة كان فيها الطيف قدطرقا
فكان بين تلاقينـــا وفرقتنـــــا كما تبسم برق غـــازل الأفقـــا

- ٤ -

كذلك تركت قصور الاسكندرية فى دواوين شعرائها آثارا رائعة نتمثل منها بقصيدة ابن قلاقس التى منها :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت فيه الرياض بسرها المســـــتور
خفض الخورنق والسدير(٢)سموه وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمـــام عمـــــامة مكية وأقـــام فى أرض من الـــكافور
غنى الربيع به محاســـن وصفه فافتر عن نـــور يـــرق ونـــور
فالدوح يستحب حلة من سندس تزهو بلؤلؤ طلهــــــا الموفور
والنخل كالغيد الحســـان تقرطت بسبائك المنظـــوم والمنثـــور
والبحر يرعد متنــــــه فكأنه درع تسن بمعطفى مقـــرور
وكأننا والقصر يجمـــع شـــملنا فى الافق بين كواكب وبـــدور

وهى كذلك تحفل بالأوانس الفاتنات كاللواتى تيمن الشاعر ظافر الحداد فقال فى دار حفلت بباقة ناضرة منهن ٠

سائل الدار ان سالت خبيرا واستجر بالدموع تدع مجيرا

(١) بدائع البدائه لعلى بن ظافر ٠

(٢) الخورنق والسدير قصران عظيمان ذكرت كتب التاريخ انهما كانا ببلاد العرب ٠

هى دار العيش العزيز بما ضمت قضيبا لدنا وظبيا غريرا(١)
ما تخيلت أنهـــا جنة الخـــلد الى أن رأيت فيهـــا الحورا (٢)
يا لواة الديون هل فى قضـــاء الحسن أن يمطل الغنى الفقيرا(٣)
احفظوا فى الاسار قلبا تمنى شغفا أن يموت فيكم أسيرا
وقتيـــلا لكم ولا يشتكيـــكم هل رأيتم قبلى قتيلا شكورا ؟

- ٥ -

فهل تستحق الغادة السكندرية من عشاقها كل هذا العناء ؟ الحق أن لخطواتها صدى فى قلوب الشعراء ، ولأسهم عينيها مرمى فى الأفئدة الظامئة المتطلعة اليها ، ولتأود قدها فعل السحر فى قلوب محبيها ، فهذه الحسناء ذات الأعين الوسنانة ، وتلك سـمة من سمات الجمال فى ذلك العهد - اذ لم تكن العيون الجريئة قد شقت طريقها بعد هذه الغـــادة تثير الشاعر ظافر الحداد فيقول :

فى لحظهـــا مرض للتيه تحسبه وسنان أو فقريب العهد بالرمد
تريك ليلا على صـبح عـلى غصن على كثيب كموج الرمل مطرد

وتلك التى تلتفت وراءها لترى ماذا صنعت برشاقتها فى قـــلوب الناظرين اليها ، يقول ابن قلاقس فيها :

لوت حين ولت لنـــا جيدهـــا فأى حيـــاة بدت فى وفاة ؟
كمـــا ذعر الظبى من قانص ففر وكرر فى الالتفـــــات

وهذه أخرى تمشى فى خطوات وليدة ضيقة يمليها عليها دلالها فتثير شاعرية ابى الحسن بن معبد فيقول :

ومهفهف طالت ذوائب فرعــه كالليل فاض على الصباح المسفر
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به لى مقلة عن حبـــه لم تقصر

ثم هذا سرب من الغوانى يلتقى بهن الشـــاعر ابن قلاقس وهن يزدهين بزينة مسترجلة فيقول :

عقدوا الشعور معاقد التيجان وتقـــلدوا بصـــوارم الأجفان
ومشوا وقد هزوا رماح قدودهم هز الـــكماة عـــوالى المران
وتدرعوا زردا فخلت أراقمـــا خلعت ملابسهـــا على الغزلان

(١) و (٢) و (٣) - ابيات متصلة .

كل هذه الصور المشرقة التى تتالق فى طرقات الاسكندرية وكل هذه الثورة الطائلة من الحسن والفتنـــة والاثارة التى تسكن دورهـــا وقصورها وتبعث دفء الحياة في عواطف أهلها ، وكل ألوان الجمـــال الموروث في سلالاتها ، المؤتلفة عبر الزمن ، هى التى فتحت أمام شعراء المدينة طريق الغزل ، فقدموا لنا منه باقات ناضرة . تحمل وهج الحب وحرارة الشوق وثراء الكلمة ، ورشاقة التعبير فالى جانب النماذج التى أوردناها فى ثنايا هذا البحث نستمع هنا الى نماذج أخرى تبين لنا كيف كان هذا الشعر حافلا بالصـــور الجميلة ، بعيدا فى كثير من حالاته عن التكلف الذى يتضح أحيانا فى كثير من شعر الحب القاهرى ، فمن قصيدة لأبى الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز السكندرى (١) يقول فيها :

يا ساحر الطرف ليلى ماله سحر   وقد أضر بجفنى بعـــدك السهر
ولست أدرى وقد صورت شـــخصك فى
قلبى المشوق . أشـــمس أنت أم قمـــر
ما صـــور الله هـــذا الحسن فى بشر
وكان يمكن ألا تعبـــــد الصـــور
أموت وجـــــدا ومالى منك مرحمة
وكم حذرت ولم ينفعنى الحـــــذر
أستغفـــر الله . لا والله مـــا خلقت
عيناك الا لـــكى يفنى بهـــا البشر

وله من قصيدة رقيقة :

أيهـــــذا المتجنى   ما الذى رابك منى ؟
بالذى لم يغننى عنـــ   ـك وقد أغناك عنى
لا تنغص عيشـــة   أنت لها أقصى التمنى

ومن قصيدة لابن قتادة :

أسباك منه جيده أم طرفه   أم شـــكله أم دله أم ظرفه ؟
يا ناظرى أم ورد وجنته الذى   يلتذ للعين البصيرة قطفـــه
صافحته فشكت أنامله الأذى   وتالمت من لمس كفى كفـــه

---

(١) عاش بالاسكندرية وسافر الى بغداد فمات بها سنة ٦٠٣ هـ .

ومن أخرى لواصف الملك بن الدباغ :

يا رب ان قـــدرته لمقبـــل غـــيرى فللأقـــداح أو للأكؤس
فاذا قضيت لنا بعين مراقب في السر فلتك من عيون النرجس

ومن قصيدة لأبى حميد الاسكندرانى :

هوان كسى جسمى ثيابا من الضنى
فأصـبحت فيهـا كالخيـال لمبصرى
فصل أو فقاطع لست أجفوك عندها
ولو مت من شوقى وفرط تذكرى
فاعذب ما ألقى الهـــوى وألـذه
اذا جار محبـــوبى وقل تصـبرى

. ومن أخرى لابن معبد القرشى :

يا حادى العيس رفقا بالحبيب فقد
طار الفـؤاد وقل الصبر والجـــلد
لعـــل حبى يرى ذلى .. فيرحمنى
بنظرة علهـــا تشـــفى الذى أجـد

ومن قصيدة لظافر الحداد :

هذا الفراق وهذه الأظعان
هل غير وقتك للدموع أوان ؟
ان لم تفضها كالعقيق فكل ما
تدعوه من سنن الهوى بهتان
ان كنت تدخر الدموع لبينهم
فالآن قد وقع الفراق وبانوا

ومن قصيدة لاسماعيل بن مكنسة :

أعـــاذل ما هبت ريـــاح مـــلامه
بنار هوى الا وزادت تضرما
فكلنى الى عين اذا جف ماؤها
رأت من حقوق الحب أن تذرف الدما
فكم عبرة أعطت غرامى زمامها
عشـية أعملن المطى المزمما

وعين حماها ان يلم بها الكرى
أحاديث أيام تقضين بالحمى
ولله قلب قارعته همومه
فلم يبق حد منه الا تثلما

- ٧ -

على أن النساء فى هذا العصر لم يكن متاعا خالصا همهن الحب والزينة وارضاء العشير • ونعما هذا ـ وانما شاركن بجوار ذلك فى بناء المجتمع الفكرى والأدبى أيضا فكان منهن الفقيهات الجليلات ، والمحدثات الفضليات (١) وكان منهن كذلك الشاعرات الملهمات

ونورد هنا نماذج للشاعرة تقية الصورية (٢) نستطيع أن نتبين فيها سماتها النفسية فى وضوح وجلاء ، فقد كتب اليها أحد الشعراء أبياتا تعرض فيها لأبيات مدحت بها نفسها ، ذلك حيث يقول :

وما شرف أن يمدح المرء نفسه
ولكن أفعالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء قلبه
ولا كل أصحاب التجارة تربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظ
ولا كل من ضم الوديعة يصلح

فردت عليه بأبيات نسمع فيها صدى اعتزازها المستمد من ثقتها الكبرى بنفسها ومن عرفان أكبر بقيمتها وهذه هى :

تعيب على الانسان اظهار علمه
أبالجد هذا منك، أم أنت تمزح ؟
فدتك حياتى قد تقدم قبلنا
الى مدحهم قوم وقالوا فأفصحوا
وللمتنبى أحرف فى مديحه
على نفسه بالحق ، والحق أوضح

---

(١) منهن ترفة بنت احمد الرازى ٥٣٤ هـ والحفرة بنت المبشر ٥٢٨ هـ •
(٢) أم على تقية بنت غيث بن على الارمنازى ولدت فى دمشق ٥٠٥ هـ وعاشت بالاسكندرية

أرونى فتاة فى زمانى تفوقنى
وتعلو على علمى وتهجو وتمدح

وهى تتعمق المعنى أحيانا حتى تأتى به دقيقا كما فى الشطرة الرابعة من البيتين التاليين :

نأيت عنكم وفى الاحشاء جمر لظى
وسقم جسمى لما أهواه عنوانى
اذا تذكرت أياما لنا سلفت
أعان دمعى على تغريق نسيانى

وفى الأبيات الآتية توشك الشاعرة أن تصرخ اعلانا لنقمتها على جمود بعض الناس لولا أن بحر السريع الذى صاغت فيه الشاعرة قصيدتها قد ضيق المجال أمام انفعالها وصده أن يأخذ مداه :

خان اخلائى وما خنتهم
وأبرزوا للشر وجها صفيق
وكدروا الود القديم الذى
قد كان قدما صافيا كالرحيق
وباعدونى بعد قربى لهم
وحملوا قلبى مالا أطيق

ويروى لها صاحب نفح الطيب الأبيات التالية التى تصف شرور الخمر ويبدو فيها كلف الشاعرة بالبديع فى تجنيسها لقوافيها الثلاث :

لا خير فى الخمر على أنها
مذكورة فى صفة الجنه
لأنها ان خامرت عاقلا
خامره فى عقله جنه
يخاف أن تقذفه من علا
فلا تقى مهجته جنه

وتقية بعد ذلك ، فتاة بارعة الجمال فائقة الحسن اشتغلت بالأدب ودارت بينها وبين الأدباء والشعراء مراسلات أدبية وقد أوردنا مثالا منها، وهذه أبيات لشاعر سكندرى تنم عما لتقية من وسامة خلق وسماحة نفس وكانت الشاعرة قد أهدت اليه هدية من التوت الاحمر فكتب اليها يشكرها :

وتوت أتانا ماؤه في احمراره
كدمعي على الأحباب حين ترحلوا
هدية من فاقت جمالا وفطنة
وأبهى من البدر المنير وأجمل
فلا عدمت نفسي تفضلها الذي
يقصر وصفي عن مداه ويعدل

ولقد ردت عليه بأبيات لم يبق لنا منها سوى :

أتاني مديح يخجل الطرف حسنه
كمثل بهي الدر في طي قرطاس

هذا وقد توفيت تقية الصورية سنة ٥٦٩ هـ ٠

- ٨ -

وليالي الاسكندرية في ذلك العهد كانت تحفل بكل ما يثير العاطفة ويلهب الحس من لهو وطرب وقصف ، وقد خلف الشعراء آثارا حية بانطباعات هذه المثيرات في أنفسهم ٠

وهذه ألوان من شعر ابن قلاقس يصف فيها مباهج هذه الليالي فمن قصيدة له يصف مجلس غناء :

ومغن تناولت يده العو
د فعادت بنا الى الأفراح
بين ريح من المزامير أسرى
بين أجسادنا من الأرواح
وصباح قد عقدوا طرز الليل
جمالا على الوجوه الصباح

ومن مقطوعة أخرى ينتقد فيها مجلس غناء لا تجانس فيه فيقول في سخرية تدل على حسن تذوقه لفن الغناء ٠

ينافر ايقاعه صوته
فهذا يزيد وذا ينقص
ويتبعه زامر مثله
تبيع له نفس أوقص (١)

---

(١) أوقص = قصير ٠

فان قام ما بيننا راقصا
فكل الى بيتــه .. يرقص

وهو يصف لنا فى مقطوعة ثالثة أحد الراقصين من الضاربين بالدف وكان ذا جمال باهر فيقول :

مر بيمنـــاه على طاره
يلمســـه أحســن ما لمس
وواصل النقر على اصبع
تغنيــه لو شاء عن الخمس
فحدثوا عن قمر مشرق
يلعب بالبرق على الشمس

وهذه ساقية حسناء في مجلس شراب يصفها بقوله :

اشرب معتقة الطلا صرفا على
رقص الغصون بروضة غناء
من كف وطفــاء الحفــون كأنمــا
تســعى بنار أضرمت فى ماء
فى سحر مقلتها وخمرة ريقها
شرك العقول وآفة الأعضاء

- ٩ -

فاذا تركنا مجالس اللهو وأردنا أن نشهد مجالس الأدب طالعتنـا صحف ذلك العصر بصور رائعة تشهد بما كان عليه أهله من حسن تذوق للفن ورهافة فى الحس وترف فى المعيشة ، ويقدم لنا على بن ظافر أحد هذه المشاهد فى كتابه بدائع البدائه .

« أخبرنى ابن المؤيد رحمه الله قال : اجتمعنا مع جماعة من أدباء أهل الاسكندرية فى بستان لبعض أهلها ، فحللنا روضا تثنت قامات أشجاره وتغنت قينات أطياره ، وبين أيدينا بركة ماء كجو السماء فنثر عليها بعض الحاضرين ياسمينا زان سماءها بزواهر منيرة ، وأهدى الى لجتها جواهر نثيرة ، فتعاطينا القول فى تشبيهه ، وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتنبيهه ، ثم أظهرنا ما حررنا ونشرنا ما حبرنا فأنشد العباس بن طريف الخراط :

نثروا الياســـمين لمـا جنـوه
عبثا فاســتقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكى
زهر الأرض فى أديم السماء

وأنشد الأديب أبو الحسن على بن سيف الدين الحصرى :

نثروا الياسـمين لمـا جنـوه
فوق ماء أحبب به من ماء
فحكى زهره لنـا اذ تبـــدى
زهر الشهب فى أديم السماء

قال ٠٠ وكان الذى صنعته :

نثروا الياسمين فى لجة المـاء
فخلنـــا النجوم وسط السماء
فكأن السماء فى باطن الأرض
أو الدر طف فوق المـــاء

قال ٠٠٠ وسمع أبو عبد الله بن الزين النحوى القصة ولم يكن حاضرا معنا فقال :

نثر الغلام الياسمين ببركة
مملوءة من مائها المتدفق
فكانما نثر النجوم بأسرها
فى يوم صحو فى سماء أزرق

قال على بن ظافر (١) فصنعت :

زهر الياسمين ينثر فى الماء
أم الزهر فى أديم السماء ؟
ظل يحكى عقود در على صد
ر فتاة فى حلة زرقاء ٠ »

واعتقد خلافا لما قاله الراوى أنه لم يكن الشعراء منفردين بأفكارهم ساعة أن نظموا هذه المقطوعات فان هناك اتفاقا فى ابتداءات المقطـوعات الثلاث الأولى كما أن هناك اتفاقا فى القافية ٠

(١) ما بين المعقوفتين (زيادة ليست فى الأصل) ٠

وأعتقد أن أروع ما فى هذا المشهد هو تمثيله للون من ألوان الحياة كان الأدب عنصرا بارزا فيه أما الناحية الفنية فيه فانها لا ترقى الى المستوى الفنى العام لشعر هذا العصر .

- ١٠ -

وهذه قصة أخرى رواها العماد الاصفهانى فى الخريدة والعماد الحنبلى فى شذرات الذهب . ويدلل بها ابن خلكان فى وفيات الاعيان على شاعرية ظافر الحداد ، ومؤدى هذه القصة : أن خاتم الامير السعيد ابن ظفر حاكم الاسكندرية كان قد ضاق على خنصره ، فأرسل الى الشاعر ظافر الحداد يستدعيه ليرده له فحضر وفصل ثم أنشده والمجلس منعقد حوله :

قصر عن أوصافك العالم فاعترف الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره العالم

فاستحسن الامير الشعر ووهبه الخاتم ولعل ظافرا لحظ أن الامير داخله الشك فى شاعريته فاغتنم فرصة وجود غزال مستأنس رابض بين يدى الامير ورأسه فى حجره فقال :

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخطى له واعتمد
واعجب به اذا بدا جاثما وكيف اطمأن وانت الاسد ؟

فازداد الامير اعجابا به وبشاعريته ومنحه جائزة ، وهنا اراد أحد الحاضرين أن يعرف المدى الذى يمكن لشاعرية ظافر أن تسعفه فيه ، فاقترح عليه أن يصف الشبك الذى كان مسدولا على الباب ليمنع دخول الطير الى القاعة فأنشد على الفور :

رأيت ببابك هذا المنيف شباكا فادركنى بعض شك
وفكر فيما راى خاطرى فقال البحار مكان الشبك

وبلغ اعجاب الامير غايته وهو يمنحه جائزة أخرى ... ويقول للذى اقترح عليه ذلك : «كفى والا نزع ما على اجسامنا» .

وهى قصة تدل فيما ارى على توقد الذهن وسرعة الخاطر والقدرة على اقتناص الفكرة ، ثم نظمها فى سهولة ويسر ، تدل على هذا بأكثر مما تدل على أصالة الشاعرية وعمقها ، تلك التى تؤكدها نماذج أخرى عديدة ورائعة لهذا الشاعر سنورد بعضها فى موضعه وفى ترجمته الخاصة ، وهى تدل كذلك على روح احكام ذلك العصر فى الاستماع الى هذا اللون من الادب ، والاستمتاع به والاثابة عليه .

وهذه المجالس وماكان يدور فيها من حوار رشيق بين روادها وما يتناقلونه من طرائف أدبية ومايتناشدونه من أشعار مطربة ، وما يتفكهون به من فكاهات بارعة تشيع روح المرح والسرور بين السماء تركت من الاثر مارقق من خشونة الخلق السكندرى وأشاع فى العصر روحا من السخرية اللاذعة التى تبدو جلية فى مقطوعات الهجاء والمداعبة التى وصلت الينا وفيما يلى بعض هذه النماذج التى يحسن بنا الاستماع اليها ومحاولة التعمق فيها حتى يمكن ان ندرك خصائص السكندريين فى هذا اللون من الشعر وهى نماذج تتأرجح بين القسوة الجارحة والدعابة الهيئة والتناول العميق وهذه مقطوعة للشاعر ابن مكنسة يسخر فيها من صديق له أعلن التوبة .

يارب عربيد اذا ما انتشى   اربى على المجنون فى مسه
قالوا لقد تاب .. ووالله ما   يتوب أو يجعل فى رمسه
وانما توبته هذه   عربدة أيضا على نفسه

وهذه أخرى للشاعر محمود بن ناصر يداعب صديقا له يشتغل بالطب :

صديقنا المستطب .. نادرة   قد أخذت منه اعين الناس
أنياب غول ومشفرا جمل   وراس بفل وذقن نسناس

ولمحمد بن الخمشى يهجو «عين الملك»

الا ان ملكا انت تدعى بعينه   جدير بان يمسي ويصبح أعورا
فان كنت عين الملك حقا كما ادعوا   فان له العين التى دمعها جرى

ولعبد المحسن الرقيق :

ماكنت أدرى قبل منظره   أن المسيخ الدجال قد ظهرا
من قال ان الاله خالقه   فانه بالاله قد .. كفرا

ولابن قلاقس يهجو أحد الزامرين :

تعبت فما أتيت لنا بشىء   فكيف تكون ساعة تستريح ؟
فلا تكثر علينا فى محال   بزمرك صح ان الزمر ريح

ولعل أخف ألوان الهجاء وأرقها هو مايتمثل فى بيتى الشاعر الأندلسى الرائد أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت فى أحد أصدقائه :

أنا أرعــاه مــكرها ، وبقلبى ... منــه مايقلق الجبــال أقله
فهو مثل المشيب أكره مـرآه ... ولكن أصـــونه .. وأجـــله

وهمـا يشـبهان فى اتجاههما العــام بيتى الشــاعر ابن جبير فى صديق له :

لى صـــديق خسرت فيـه ودادى
حين صــارت سـلامتى منه ربحـا

حسن القـــول سـيىء الفعـــل
كالجــزار سمى واتبع القـول ذبحا

ومن الهجاء الذى يتصل الخيال فيه بالاثر الدينى قول قتادة فى المكربل بعد موته :

قالوا المكربل قــد قضى فأجبتهم
مات الهجاء وعاش عـرض العــالم
ماتســمعون ضجيج مــالك معلنــا
وجنــوده لامرحبــا بالقـــادم

- ١٢ -

وفى هــذه المجــالس ، وفيهــا مافيها من دوافع المنافسة وبواعث الاجادة ، ابدع الشعراء فى الوصف وبخاصة فى وصف ماكان يقع تحت انظارهم فيها ، أو ماكان يقترح عليهم النظم فيه ، وبذلك اتاحوا لنا أن نستمتع بهذه اللمحات الفنية الجميلة وقد ســبق لنا تقــديم حوار شعرى حول منظر الياسمين الذى ألقى به غلام فى الماء .

ونعرض هنا بضعة نماذج لطائفة من شعراء هذا العصر يصودون لنا فيها بعض المشاهد المألوفة فى دقة وابداع . فهذا ظافر الحداد يصف السمك :

يروقك نيئــا وفى قليـــه ... فتنظر فى حــالتيه العجـب
نصــول السـكاكين مصـقولة ... وفى القلى تمويههـا بالذهـب

وابن قلاقس يصف بطيخة صفراء :

اتــانا الفقيـــة ببطيخـــة ... وسكينة قـد اجيدت صـقالا
فقطع بالبرق بــدر الدجـى ... وناول كل هـــلال هـــلالا

ويصف السفن فى البحر بقوله :

ترى المواخر تجرى فى زواخره
فترتقى فى أعاليه وتنحدر
من كل سوداء مثل الخال يحملها
بوجنة منه فيها للضحى خفر

«وزين القضاة» يصف القطائف :

لله در قطائف محشوة
من فستق دعت النواظر واليدا
شبهتها لما بدت فى صحنها
بحقاق عاج قد حشين زبرجدا

والشاعر السكندرى «ابن عباد» يصف أقحوانة :

والاقحوانة تحكى وهى ضاحكة
عن واضح غير ذى ظلم ولا شنب
كأنها شمسه من فضة حرست
خوف الوقوع بمسمار من الذهب

ويصف الشاعر الاندلسى «ابو الصلت» نزيل الاسكندرية جميلا قد تلفع بشال احمر :

اقبل فى قرمزية عجب — قد صبغت لون خده الشرق
كأنما جيده وغرته — من دونها اذ بدون فى نسق
عمود فجر من فوقه قمر — دارت به قطعة من الشفق

ثم نورد بيتين للقاضى «سند بن عنان» (١) يصف لنا كيف اجتز اول شعرة بيضاء أشرقت بمفرقه وكيف سخرت منه هذه الشعرة وذلك فى قوله :

وزائرة للشيب حلت بمفرقى
فبادرتها بالنتف خوفا من الحتف
فقالت على ضعفى استطلت ووحدتى
رويدك للجيش الذى جاء من خلفى

---

(١) توفى بالاسكندرية فى ٥٤١ هـ ودفن بمسجد صغير تؤدى فيه الصلاة الآن بحى الفراهدة

وكأثر من آثار هذه المجالس ظهر لون من الشعر يمتاز بوضـوح خيوط الثقافة التى تسرى فى ثناياه ، ونتمثل هنا بمقطوعات من هـــذا الشعر على أن هناك نماذج اخرى عديدة يمكن تتبعها فى هذا القسم من البحث ، والمقطوعة الاولى للشاعر أبى عمران موسى السخاوى وتبدو فيها ظلال من البداوة العربية فى التركيب اللفظى والخيـال فى البيتين الاول والثانى فاذا انتقلنا الى الثالث والرابع وجدناالشاعر وقد استعار كلمات النجاشى لليل وقيصر للصباح ثم يصف محبوبه بأنه يرتدى زى الاتراك ، والاتراك كانوا فى هذا العصر يمثلون عنصرا ممتازا فى المجتمع من الناحيتين الجمالية والمادية :

هـــذى ديارهـــم وتلك نـــوار
نأت النـــوى وتـدانت الأوطـــار
ولرب موحشـــة قطعـت ومـؤنسى
طـــرف أغـــر وكوكب غـــرار
حتى استـجاش على نجاشى الدجى
من قيصرى السـدفة الاسـفار
واتى بزى الترك (يـرفل) فى قبـــا
،الشـهب حـــول جيـوبه ازرار

والمقطوعة الثانية للشاعر أبى الربيع سليمان بن فياض ويبدو أثر المعرفة بالاتجاهات الدينية فى عصره فى البيت الاخير منها :

باتت عـلى مـن الاراك تنـوح ... تخفى الصـبابة مـرة وتبـوح
عجمـاء ماكادت تبين لســامع ... ولهـا حـديث فى الفؤاد صريح
أمريضة الاحشاء من فرق النوى ... مهـــلا بشـملك انه لصحيح
أوما رأيت تجـلدى وانا الذى ... شملى على سنن الفـراق طريح
تتقـــاذف الايام بى فـــكأننى ... لجســوم أصـحاب التنـاسخ روح

والمقطوعة الثالثة من قصيدة لظافر الحداد يتحدث فيها عن تلك الليالى الجميلة التى كان يقضيها هو ورفاقه الادباء فى مصاحبة الشاعر امية بن عبد العزيز بن أبى الصلت :

ليـــالى يدنينـــا جـــواب أعادنا
من القرب كالصنوين ضمهما ساق

وما بيننا من حسن لفظك روضـــة
بهــا حسدت منــا المسامع احداق
حديث.. حديث .. كلماطال موجز
مفيــد الى قلب المحـــدث ســباق
يزجيــه بحـــر من علومك زاخــر
له كل بحـــر فائض اللج رقــراق
معان كأطــواد الشــوامخ جـــزلة
تضمنها عــذب من اللفظ غيــداق
به حـــكم مســتنبطات غــرائب
لأبكارها الغــر الفــلاسف عشــاق
فــلو عاش رسطاليس كان له بهــا
غـــرام وقلب دائم الفــكر تــواق

والمقطوعة الرابعة للشاعر نصر بن عبد الرحمن الفزارى وهى تدل على مدى تفلفل حب الكتب فى نفس قائلها وحرصه عليها وحسرته على مصيرها بعده ، ذلك حيث يقول :

اقلب كتبــا طـــالما قــد جمعتهــا
وأفنيت فيها العين والسمع واليدا
وأصبحت ذا ضن بهـــا وتمسك
لعلمى بمــا قد صفت فيها منضــدا
واحــذر جهــدى ان تنــال بنــائل
مبيــد وأن يفتــالها غائــل الردى
واعلم حقــا اننى لســت باقيــا
فياليت شعرى من يقلبها غــدا ؟

والمقطوعة الخامسة لابن قتادة وهى وان كانت غزلية الا أن الفاظها ذات ايماءات ثقافية :

نظرى اليك يزيد فى نظـــرى
فعلام تحجبنى عن الـــنظر
ياجملة الحسن التى اقتسمت
منهــا المحــاسن جملة البشر
لهــواك بين جـــوانحى كتب
قــد عنونت بالدمع والســهر

وهناك لون من الشعر الثقافى المنظوم فى موضوعات علمية وهو يخلو فى الغالب من الروح الشاعرية لذلك نكتفى بالاشارة اليه .

- ١٤ -

والى جانب هذه المدارس الدنيوية كانت هناك المجالس الدينية التى كانت تعقد فى مجالس المدينة الكثيرة العدد وفى المدارس الدينيةالتى انتشرت انتشارا واسعا فى الاسكندرية حيث يستمع الناس الى بحوث اساتذة أجلاء من اهل المدينة ومن الوافدين اليها من بلاد القطر المصرى والاقطار العربية الاخرى ومن الاندلسيين الذين كانت لهم مكانتهم العلمية والعددية . وكان لابد لهذا التيار الدينى الضخم أن يترك أثره فى الشعر السكندرى ، وكان هذا الاثر واضحا حتى فى الشعر الذى نظم فى غير الاغراض الدينية ، وهذه ابيات من قصيدة خمرية لابن قلاقس يقول فيهـا :

ومصفرة قد أسقم الدهر جسمها
فصحت وفى النيران تصفو السبائك
عجوز عليها سبحة من حبابها
تصلى على قوم بها وتبارك
عكفنا على حافاتها .. فكأنها
مشاعر تقوى أوثرت أو مناسك

ونرى فيها الفاظ « سبحة وصلاة وبركة وعكوف ومشاعر وتقوى ومناسك » هذا غير الصورة العامة ذات الايحاءات الدينية . ومن خمرية اخرى لواصف الملك أبى الحسن بن الدباغ :

مستفاض من معجزات الشمول ... انها تظهر الضحى فى الأصيل
فأرونى كيف المساء أسير ... والأسى فى سلاسل السلسبيل
أى معنى هدى ولفظ ضلال ... ان تريك الأفول غير أفول

ونرى فيها كسابقتها كلمات «مستفاض ومعجزات وضحى وسلاسل وسلسبيل وهدى وضلال » الخ ...

فاذا انتقلنا الى الغزل صادفتنا أيضا فى بعضه هذه المعانى ذات الظلال الدينية . فنقرأ مثلا مقطوعة محمد بن الخمشى :

قال لى العـــاذل فى حبـه وقولـه زور وبهتـــان
ما وجه من أحببتـه قبـلة قلـت ولا قولك قـرآن

فتستمع فيهـا الى كلمات « زور وبهتان وقبلة وقرآن » هـذا غير الايحاء العام للبيتين ، ونلمح أمثال هذه الظلال فى الأبيات الغزلية التالية للطرطوشى :

قمـر أتى من غـير وعـد حفت شـمائله بسـعد
قبلتـه ورشـفت ما فى فيه من خمـر وشـهد
فمزجت مزن السلسبيل بزنجبيـــل مســـتمد
ولثمـت فاه من الغروب الى الصـباح المسـتجد

- ١٥ -

هذا الى جانب الشـعر الدينى الصرف الذى نكتفى منـه بالنماذج التالية ، فمن قصيدة لابن غسان الكاتب :

توكل على الله جـل اسـمه ولا ترجون ســواه تعــالى
وكل امـرىء يرتجى غـيره لـكشف الملمات يرجو محالا

ومن أخرى للمفضـل بن أبى الحسن اللخمي ويبدو فيهـا اهتمامه بتجنيس القوافى :

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسـل وأصحابه والتـابعين تمسكى
عســاك اذا بالغت فى نشر دينـه بما طاب من عرف له أن تمسكى
وخافى غدا يوم الحســاب جهنمـا اذا لفحـت نيرانهـا أن تمسـك

ومن قصيدة لاحمد بن على الوشيد :

ســمحنا لدنيــانا بمـا بخلت به علينـا ولم نحفل بحـل أمورها
فياليتنـا لمـا حرمنـا سرورها وقينا أذى آفاتهـا وشرورها

ويبدو كلف ابن جبير بالجناس وقد كان البدعة السائدة فى عصره فى هذين البيتين :

اذا بلغ العبـد أرض الحجــاز فقد نال أفضـل ما أم له
فان زار قبر نبى الهـدى فقـد أكمـل الله ما أمـله

وفى هذين البيتين :
اياك والشــهرة فى ملبس والبس من الأثواب أسـمالهـا

تواضع الانسان فى نفسه أشرف للنفس وأسمى لهـا

ومن قصيدة لابن قلاقس :

الفكر فى الرزق كيف يأتى شىء به تتعب القلوب
فجانب الناس وادع من لا تكشف الا به الخطوب

وهذه مقطوعة لأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت يقول فيها :

ما أغفل المرء وألهاه يعصى ولا يذكر مولاه
يأمره بالغى شيطانه والعقل لو يرشد ينهاه
غرته دنياه فلم يستفق من سكرها يوما لأخراه
ياويحه المسكين .. ياويحه ان لم يكن يرحمه الله

وللامام أبى بكر الطرطوشى :

اعمل لمعادك يا رجل فالناس لدنياهم عملوا
واذخر لمسيرك زاد تقى فالقوم بلا زاد رحلوا

ويقول الامام الحافظ السلفى (١) فى تمجيد علم الحديث :

ان علم الحديث علم رجال تركوا الابتداع للاتباع
فاذا الليل جنهم كتبوه واذا أصبحوا غدوا للسماع

ولظافر الحداد فى الدعوة الى الزهد :

اذا اذنت لك الدول تذكر كيف تنتقل
فلو سمحت بها الأيا م لم يسمح بها الأجل

هذا الى نماذج أخرى نلتقى بها ضمن الاشعار التى استشهدنا بها فى هذا البحث ..

- ١٦ -

وكان من الطبيعى أن يساير شعراء الاسكندرية ، فى هذه الفترة من الزمن ، الوكب العام فيمدحون الحكام ومن دونهم ، فاذا طالعنا صورا من مدائحهم وجدناها وقد غلبت عليها السمة التى طغت على قصائد المدح

(١) توفى الحافظ السلفى سنة ٥٧٦ هـ عن مائة سنة وست ومن مؤلفاته بالنسبة الى الاسكندرية كتاب معجم السفر الذى روى فيه لمجموعة من الذين أقاموا بالاسكندرية أو مروا بها ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

القاهرية ، تلك هى المبالغة والاغراق فى تمجيد الممدوح والارتفاع به آلى ما لا يرتفع اليه سائر البشر وقد وفدت بذور هـذا الاتجاه من المغرب مع الدعوة الفاطمية التى كان شاعرها (١) يمدح خليفته بمثل قوله :

ما شـئت لا ما شـاءت الاقدار   فاحكم فانت الواحد القهـار

والفاطميون كمـا نعلم قسم من الشـيعة ، والشيعيون يقدسـون الأئمة من آل البيت ويرون فيهم من العصمة والطهر ما لا يرون فى سائر الناس بل ويرتفـع بهم بعضهم ــ والفـاطميون منهم ــ الى ما فوق درجة الملائكة فيخاطب أحد شعرائهم حامل مظلة الخليفة بقوله :

امديرها من حيث دار لشـد ما   زاحمت تحـت ركابه جبريلا

وربما كان مرجع هذا الى أن بعض الشيعة ــ والفاطميون منهم ــ كانوا يعتقدون أن الله يعد الامام اعدادا خاصا قبل بدء ظهور الخليفة ، حتى اذا جاء دوره فى الحياة البشرية وأوتى الخلافة تلقى علمه عن طريق الوحى الالهى وهم يعتقدون كذلك أن للقرآن ظاهرا وباطنا . أما ظاهره فهوما يعلمه الناس وأما باطنه فقد اختص الله به الأئمة(٢) الى غـير ذلك من معتقدات أخرى لا نرى هنا مجالا لعرضهـا ونكتفى هنا فى تقديس الأئمة والغلو فى مدحهم بأبيات لشاعر لم نعرف الا لقبه « الاسكندرانى » يمدح فيها العزيز بالله وقد ولى الخلافة بعد أبيه المعز :

أأمـدح رهطا غـير رهط محمـد   وفى الجيـد عهـد للامام وموثق
ولافضل لى فى ذا، بل الفضل فضل من   بهم يحـرم الله الأنام ويرزق
أئمـة دين الله مـذ قام دينـه   وأنوار هـذا الخلق من قبل يخلق
محبتهم فرض على النـاس واجب   وعصيانهم كفر الى النـار موبق
ولولا هـم لم يخلق الله خلقـه   ولم يك فى الدنيـا ضياء ورونق
لئن فقـد النـاس المعز لدينـه   لقـد قام بالدنيـا العزيز الموفق

وهذه الأبيات من قصيدة أسـماها صاحبهـا « ذات الدوحة » وهى مرسومة بالـكتابة على شكل شجرة ذات فروع اشـارة الى قول منسوب للنبى الكريم « أهل بيتى شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » (٣) .

(١) الشاعر ابن هانىء الاندلسي ، وقد توفي قبل أن يصل الفاطميون الى الاسـكندرية ويلقب بمتنبى الغرب .

(٢) يشارك بعض الصوفيين الشيعة هـذا الاتجاه نحو القرآن ويضـيفون الى آل بيت النبى « من اصطفى الله سبحانه من عباده الاولياء » .

(٣) القصيدة كاملة فى كتاب « أدب مصر الفاطمية » للدكتور محمد كامل حسين .

فاذا انتقلنا الى مدائح الافراد ممن هم دون الأئمة وجدنا أثرا لهذه المبالغة في قصائد هذا العهد والتي نكتفي منها بالالوان التالية :

فمن قصيدة لابن مكنسة يمدح بها الأفضل :

ملك بكفيه وأسيافه   تقسم آجال وأرزاق
ذلت لنعماك نفوس كما   ذلت لأسيافك أعناق

ومن أخرى لابن الكاتب ويبدو فيها اهتمامه بالبديع الذى كان سمة العصر ، وقد حاول الشاعر هنا تجنيس الكثير من الكلمات :

أجل أنت من كل ملك أجل   وفى راحتيك المنى والأجل
فلا الباب عن مرتج مرتج   ولا الوفر عن معتز معتزل

على أن الاسكندرية مع ذلك لم تخل من شعراء حاربوا الملق فى هذه العهود حيث نسمع لابن جبير مثلا هذه الابيات :

من الله فاسأل كل أمر تريده   فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم   من الكبر فى حال تموج بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة   فقد قيل عنها انها السجدة الصغرى

- ١٧ -

ولم تبعد الاسكندرية الشاعرة فى هذا العصر كثيرا عن مسايرة التيار القومى ،و لا عن القيام بواجبها فى تعبئة القوى الروحية والمعنوية ضد طوفان الاستعمار الصليبى الذى بدأ يكتسح سهول الشرق الخصيبة ويغمر الارض من دماء بنيها ، هؤلاء الذين أقاموا من أجسادهم أسوارا ترد هذه الجموع المسعورة عن أراضيهم المقدسة ٠ فمع قيام الجنود والوطنيين بالواجب العملى فى الدفاع العسكرى عن المدينة وتأييدهم للقائد صلاح الدين الايوبى (قبل أن يصبح سلطانا) وصمودهم معه فى أثناء الحصار الصليبى للمدينة الذى دام بضعة أشهر من سنة ٥٦٤ هـ ومع قيامهم مرة أخرى بالقضاء على الاسطول الصقلى الذى هاجم المدينة سنة ٥٦٩ هـ ، مع هذا الكفاح فى الميدان العسكرى كان الشعراء فى الميدان الادبى يتغنون بالنصر الذى يحرزه قواد الوطن خارج الاسكندرية مادحين بسالة الجيوش الاسلامية شامتين فى أعدائهم كلما حلت بهم احدى الهزائم، ونكتفى هنا بمقطوعتين لشاعرين أحدهما من أهل المدينة وثانيهما من الوافدين اليها ، فى القصيدة الاولى يتحدث ظافر الحداد عن احدى

هـذه الهزائم التى منى بها الصليبيون وعن مقتل أحد قواد هـذه الحملة وذلك ضمن مدحته للوزير طلائع بن رزيك ذلك حيث يقول :

عن سـيف دين الله سـل ارناطا	حيث المنية كأسـها يتعـاطى
والمشرفيـة قد حـكت فى جيشه	فى العـل والنهـل القطا الفراطا
قد سـام طير الـكفر منه منسرا	أشقى وعاين مخلبـا عطاطا
هوملبس حيثالعدا فى الحرب من	حلل النجيـع مجـاسـدا ورباطا
فجيـاده تشـكو مزاحمـة القنـا	وترد خرصان الرماح سياطا
هو فارس الاسـلام يحفظ بالظبا	من دينـه الأطراف والأوسـاطا
كم قـد أثار من الأسـنة أنجمـا	لمـا أثار من العجـاج عطاطا
فتخاله ملـكا رمى بشـهابه	فى الروع شيطان الحروب نشاطا

وأما المقطوعة الثانية فمن قصيدة لابن جبير يهنىء بهـا السلطان صلاح الدين الأيوبى عندما استرد بيت المقدس ويصف فيها كفاحه وقوة جيشه وزهده فيما ينعم به غيره من الملوك :

أطلت على أفقـك الزاهر	سـعود من الفـلك الدائر
فأبشر فان رقاب العـدا	تمد الى سـيفك الباتر
جنـودك بالرعب منصـورة	فناجز متى شئت أو صابر
فـكلهم غارق هـالك	بتيار عسـكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى فى العدا	فآثـرك الله من ثائـر
وقمـت بنصر الـه الورى	فسماك بالملك النـاصر
وجاهدت مجتهـدا صـابرا	فلله أجرك من صـابر
تبيت المـلوك على فرشـهم	وترفـل فى الزرد السابرى

ثم يتحدث عن استرداد صلاح الدين لبيت المقدس فيخاطبه بقوله :

فتحت المقـدس من أرضـه	فعادت الى وضـعها الطاهر
وجئت الى قدسـه المرتضى	فخلصـته من يد الـكافر
وأعليت فيـه منـار الهدى	وأحييت من رسمه الداثر
لـكم ذخر الله هـذى الفتو	ح من الزمن الأول الغـابر

بقى أن نقرأ نماذج من شعر الاندلسيين من الذين أقاموا بالاسكندرية أو وفدوا اليها لمدة طويلة ، ونحن نعلم أن الجالية الاندلسية بالمدينة كانت تكون قطاعا هاما من سكانها ، وقد كان لهذا القطاع أكبر الأثر فى المجال الشعرى ، كما كان لأدبائه وعلمائه مقام الريادة فى كثير من ألوان الثقافة بها ، ونستطيع أن نلمح فى شعر شعرائهم حدة الشعور بالغربة فقد كانوا فى الأغلب قريبى العهد بمفارقتهم أوطانهم ، ولا تزال المؤثرات العاطفية تربط بينهم وبين رفاق الصبا وأخدان الشباب فى الاندلس برباط وثيق (١) ٠

ومن قصيدة لأبى بكر الطرطوشى (٢) تقرأ هذه الابيات الحزينة :

اقلب طرفى فى السماء ترددا ... لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة ... لعلى بمن قد شم عرفك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها ... لعل نسيم الريح عنك يخبر
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب ... عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة ... عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وله من قصيدة أخرى :

يقولون ثكلى ومن لم يذق ... فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفراق ... كئوسها أمر من الحنظل

ويقول أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت (٣) :

لا تسألنى عن صنيع جفونها ... يوم الوداع وسل بذلك من نجا
لو كنت أملك خدها للثمته ... حتى أعيد به الشقيق بنفسجا
أو كنت أهجع لاحتضنت خيالها ... ومنعت ضوء الصبح أن يتبلجا
وبثثت فى الظلماء كحل جفونها ... وعقدت هاتيك الذوائب بالدجى

---

(١) نجد وجوها عديدة للمقارنة بين اسباب حدة الشعور بالغربة في شعر الاندلسيين بالاسكندرية وحدة هذا الشعور عند الشعراء العرب في المهاجر الامريكية .

(٢) توفى سنة ٥٢٠ هـ ودفن بمسجده بالسكة الجديدة بالاسكندرية ومن مؤلفاته كتاب «سراج الملوك» وقد طبع مرارا .

(٣) توفى سنة ٥٢٨ هـ وقد مكث بالاسكندرية عشرين عاما فيما يروى صاحب « نفح الطيب »

وهذه نماذج من شعر الغربة لابن جبير الاندلسى (١) :

طول اغتراب وبرح شوق ... لا صبر والله لى عليه
اليك أشكو الذى ألاقى ... يا خير من يشتكى اليه
ولى « بغرناطة » حبيب ... قد غلق الرهن فى يديه
ودعته وهو فى دلال ... يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه ... ينهل فى ورد وجنتيه
أبصرت درا على عقيق ... من دمعه فوق صفحتيه

ومما يبعث الشجى قوله :

أقول وقد حان الوداع وأسلمت ... قلوب الى حكم الأسى ومدامع
أيارب أهلى فى يديك وديعة ... وما عدمت صونا لديك الودائع

وقوله :

غريب تذكر أوطانه ... فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرا صبره بالأسى ... ويعقد بالنجم أجفانه

وتحضره صلاة العيد فتثور بوجدانه الذكريات :

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة ... بأحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلى فى النوى جد بمدمع ... فليس لنا الا المدامع قربان

ويسمع ابن جبير وهو بالاسكندرية أن صديقه ابن الخطيب أبا محمد عبد الله التميمى قد ولى قضاء « سبتة » وكان ابن جبير قد أقام بها اقامة ماتت فى أثنائها زوجته ، فتثير ولاية صديقه على قضائها الذكريات المطوية ولهذا بعث ابن جبير اليه ببيتين يذكر فيهما زوجته ويود لقاء صديقه :

بسبتة لى سكن بالثرى ... وخل كريم اليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوا ... فزرت بها الحى والميتا

ومن قصيدة لأبى الحسن موسى بن سعيد :

رفيقى جاوزنا حدود مواطن ... صحبنا بها الأيام طلقا محياها

(١) ولد بالاندلس سنة ٥٤٠ هـ ووصل الى الاسكندرية فى أول مرة سنة ٥٧٨ هـ وتوفى بها سنة ٦١٤ هـ وقبره فيما يؤكد الكثيرون هو المعروف بسيدى جابر حيث مسجده الكبير وقد قامت وزارة الأوقاف أخيرا باعادة بنائه .

وما أن تركناها لجهل بقدرها ولكن ثنت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله يوما بلقياها

هذا وقد ترك الاندلسيون الذين غادروا الاسكندرية كذلك أعمق الأثر فى نفوس أبنائها ونتمثل هنا بأبيات من قصيدة للشاعر ظافر الحداد فى وداع الشاعر أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت عند سفره من الاسكندرية بعد اقامة طويلة بها :

وما طائر قص الزمان جناحه وأعدمه وكرا وأفقده الفا
تذكر رعيا بين أفنان بانة حوافى الخوافى ما يطرن به ضعفا
اذا التحف الظلماء ناجى همومه بترجيع نوح كاد من دقة يخفى
بأشوق منى مذ أطاعت بك النوى هوائية مائية تسبق الطرفا

- ١٩ -

ويبدو أثر التجارب التى استفاد بها موسى بن سعيد العنسى الاندلسى فى القصيدة التى نظمها بالاسكندرية فى سنة ٦٣٠ هـ وفيها ينصح ولده « عليا » (١) وكان قد وفد الى المدينة وهو فى طريقه الى القاهرة فاستبقاه حتى أتم نظمها وهى قصيدة طويلة مشهورة ومذكورة بتمامها فى الجزء الثالث من نفح الطيب وأولها :

أودعك الرحمن فى غربتك مرتقبا رحماه فى أوبتك

ويصف هذه القصيدة بأنها :

خلاصة العمر التى حنكت فى ساعة زفت الى فطنتك
فلا تنم عن وعيها ساعة فانها عون الى يقظتك

ثم يأخذ فى اسداء التوجيهات التى يراها صالحة لولده وهى توجيهات سلوكية نافعة نختار منها هذه الابيات التى هى من وجهة نظرنا أكثر دلالة على شخصية قائلها ومدى نظرته الى أمور الحياة فى المجتمع الذى يعيش فيه :

وكل ما يفضى لعذر فلا تجعله فى الغربة من اربتك
ولا تجادل أبدا حاسدا فانه أدعى الى هيبتك

---

(١) مؤلف كتاب « المطرب فى اخبار المغرب » .

أفش التحيات الى أهلها	ونبه الناس على رتبتك
ولا تزل مجتمعا طالبا	من دهرك الفرصة في وثبتك
ولا تكن تحقر ذا رتبة	فانه أنفع في غربتك
وحيثما خيمت فاقصد الى	صحبة من ترجوه في نصرتك
ولا تقل أسلم لى وحدتى	فقد تقاسي الذل في وحدتك
واقنع اذا لم تجد مطمعا	واطمع اذا أنقذت من عثرتك
كم من صديق مظهر نصحه	وفكره وقف على عثرتك
اياك أن تقربه انه	عون مع الدهر على كربتك

وموسى بن سعيد كما هو واضح فى هذه الابيات رجل عرك الدهر وتعلم من مجتمعه ووعى وجهات نظره وعرف قواعد السلوك الواجب على الغريب اتباعها فى المجتمع الجديد عليه ، اذا أراد أن يضمن لنفسه فيه مركزا طيبا ، فهو يوصى ابنه ألا يجادل حساده ، فان المجادلة مع الحاسد الذى لا يقر له بالفضل ستجعله ينقب عن عيوبه بل ويجسمها ثم هو لا يراعى أدب الخطاب معه ، ومن هنا ستهبط قيمة الصورة التى رسمها فى أعين الناس • وهو يريه كيف يفشى التحية بين الناس بالشكل الذى يحفظ عليه وقاره ويضمن له استمرار محبتهم ، ثم ينصحه أن يحترم الرؤساء وأن يتقرب اليهم ويتخذ منهم عضدا وسندا يتكىء عليه ، فانه اذا ما أحيط برعاية الكبار كان خليقا — من باب أولى — بأن ينال احترام الصغار (١) ثم يريه كيف لا يكون انطوائيا فان انطواء الغريب يدعو الناس لاهماله، وهو انما يبنى مجده على المخالطة، ثم هو يوصيه بالقناعة، ولكن متى ؟! ان القناعة التى يوصيه بها يجب أن تكون عندما لا يجد هناك مطمعا يمكن أن يطمع فيه ! وأخيرا لا ينسى أن ينصحه باتقاء مكر الاصدقاء وحسدهم فان من كانت هذه وسائله فى الظهور على مسرح مجتمعه لابد وأن يوجد حوله من يتلمس له الخطأ الذى يفقده النعمة التى يمكن أن يكون قد نالها •••

ويمكن أن نقول ان هذه القصيدة تمثل القواعد المثلى للسلوك من وجهة نظر الغريب الذى يحاول اقامة كيان مرموق له فى أرض الغربة •

ولعلها نفس القواعد التى كان الاجانب فى مصر والبلاد الشرقية يتبعونها الى عهد قريب •

---

(١) هناك وجه للمقارنة بين هذه الفقرة من نصائح القصيدة ومقدمة المقامة السكندرية للحريرى (*)

ولقد وددت أن أقصر هذا القسم من البحث على شعر الاسكندرية فى العصر الفاطمى دون المساس بالعصر الأيوبى ولكننى وجدت العصرين وقد تداخلا تداخلا شديدا حتى لقد أوشكا أن يكونا عصرا واحدا ٠٠

والحق انه لم يكن ميسورا أن أقف على حافة العصر الفاطمى فلا أتعداه ، ذلك لأن كثيرا من الشعراء عاشوا فى العصرين معا ، وأن من العسير علينا أن نعرف التاريخ الصحيح الذى نظم فيه الشعراء قصائدهم اللهم الا بعض أشعار المناسبات ، وما أقلها فى الشعر السكندرى ، ولهذا اعتبرنا العصر الأيوبى فى كثير من حالاته امتدادا للعصر الفاطمى ٠٠

صحيح أن هناك فارقا عقائديا هاما بين العصرين ولكنه لم يؤثر تأثيرا جذريا على سكان الاسكندرية ولا على الكثرة الغالبة من شعرائها ، فان كثرة الوافدين اليها من العلماء السنيين فى العصر الفاطمى ميعت حدة انتشار المذهب الشيعى فيها ، فلم يؤثر التأثير الكافى فى تلوين عقيدة أهلها ، وقد عنى الفاطميون فى بعض اتجاهاتهم بالحرية الفكرية فساعد هذا على بقاء المذهب السنى بالمدينة ، ولم يبد من أثر الاتجاه الشيعى غير ملامح الحب الشديد لآل البيت النبوى الكريم والشجى الحزين لمأساتهم ،وهذه ظاهرة لها جذور فى أعماق المصريين الذين هم عاطفيون بطبيعتهم وهى تتفق أيضا مع المذاهب الصوفية التى أخذت فى الانتشار على نطاق واسع والتى ينتسب شيوخها أو يحاولون فى الغالب الانتساب الى آل البيت حتى يمكن أن يتم لهم التأثير الروحى على أتباعهم ٠٠

وقد كان بعد الاسكندرية عن مقر الحكم وعن الارتباط المباشر بسلطة الحاكم من الأسباب التى ساعدت على انشاء كثير من المدارس الدينية ذات الطابع السنى من مثل مدرسة الطاهر بن عوف (١) والحافظ بن السلفى (٢) ٠

كذلك لم يكن ميسورا أن أقف على الحافة المكانية لمدينة الاسكندرية فلا أتعداها فى اختيار للنماذج الشعرية السكندرية ، ذلك لتنقل كثيرا من شعرائها داخل الاقليم المصرى وخارجه فى زمن لم تكن للحدود بين الشعوب العربية فيه قيمة ٠ ولهذا وجدت موقفى ازاء هذه المشكلة عسيراء

---

(١) بناها الوزير رضوان بن الحسن سنة ٥٣٢ هـ ٠

(٢) بناها الوزير على بن السلار سنة ٥٤٦ هـ ٠

ولكنى حاولت تيسيره بشتى الوسائل فبذلت كل ما أملك من طاقة حتى اخترت ما اثبته من نماذج ، مستعينا على ذلك بالشواهد التى فى الكتب الادبية والتى تساعد على صحة نسبتها الى المدينة غير مبرىء نفسى من القصور فى هذا المجال الدقيق ..

ولكى تكمل الصورة التى حاولنا رسمها للاسكندرية من شعر أبنائها فى هذه الفترة نورد هنا ثلاث تراجم لثلاثة من شعرائها يمثلون ــ فيما أرى ــ الاتجاهات المختلفة فى شعر المدينة ، كما يمكن القول بأنهم يمثلون الى حد ما طبقاتها الاجتماعية ..

أما الأول فهو شاعر ينتمى بالتبعية والمعاشرة الى طبقة الاعيان وان كان هو نفسه لا يملك من شىء ، ويمثل شعره مزاجا خاصا يعتمد على ذوق مرهف وأناقة فكرية ــ رغم تبذله أحيانا ــ وعلى ثقافة أدبية واسعة يبدو أثرها فى شعره ذلك هو الشاعر اسماعيل بن مكنسة ..

وأما الثانى فهو شاعر من عامة الشعب كان من العمال فهو حداد اشتغل بالأدب فأوصله هذا الى مجالسة الرؤساء والكبار ، وروى له الكثير من العلماء منهم العالم الجليل الحافظ السلفى الذى كان يلقب بمسند الدنيا فى عصره .. ذلكم هو الشاعر ظافر الحداد ..

وأما الثالث فشاعر من طبقة العلماء الذين نالوا حظا من الثقافة الدينية التى يبدو أثرها فى شعره واضحا ، ذلك هو الشاعر أبوالفتح نصر ابن قلاقس .

وقد سبق لنا أن استعرضنا فى هذا البحث كثيرا من النماذج الشعرية لهؤلاء الشعراء واستشهدنا بمقطوعاتهم فى كثير من الموضوعات، على أننا لن نكرر فى تراجمهم هذه النماذج مرة أخرى ...

ابن مكنسة

عاش أبو الطاهر اسماعيل بن مكنسة بالاسكندرية فى زمن ولاية أمير الجيوش بدر الجمالى منقطعا الى أحد الرؤساء من النصارى ويعرف بأبى مليح ، ونظم فيه أغلب مدائحه ، فلما مات رثاه بعــدة قصائد جيدة منها قصيدته التى نختار منها :

ماذا أرجى فى حيــاتى بعــد موت أبى مليــح

ما كان بالنكس الدنىء من الرجال ولا الشحيح

طويت ســماء المــكرمات وكورت شــمس المديح

فغضب منه الأفضــل وكان قد ولى الأمر بعد أبيه ولم يقبل منــه مدائحه التى حاول أن يترضاه بها والتى منها :

مثــلى بمصر وأنــت ملك　　يقــال ذا شــاعر فقــير
عطاؤك الشمس ليس يخفى　　وانمـــا حظى الضرير

وقال له ماذا جاء بك وقد انقطع رجاؤك بموت أبى مليح ؟

فلما ساءت حالتــه تكفل به عز الدولة بن فائق أحد أمراء الاجناد وكانت بينهما مودة سابقة وقام بأمره الى أن مات ...

وقد ترجم له العماد الاصفهانى فى الخريدة وأميــة بن عبد العزيز ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية .

وشعر أبى الظاهر بن مكنسة يمتــاز بعمق المعنى ومحاولة ابتكار الفــكرة غير المطروقة ، وصياغة المعــانى القديمة صــياغة جديدة وليست المقطوعة عنده مجرد خاطرة تنظم وانما هى عمل فنى مرسوم بعناية .

وقد سبق لنا أن استشهدنا بالكثير من شعره ونحاول هنا أن نأتى بنماذج أخرى قد تعين فى الوصول الى تقدير شاعريته ، فمن شعره قصيدة يصف فيها رمدا كان قد أصابه ويشكو الطبيب الذى يعالجه ، ومن هذه القصيدة قوله :

ما لنهــاری کأنه الغســق وما لليــلى ما شــقه الفلق
وما لعيني أرى بهــا عجبا تغرق فى مائهــا وتحترق
ولى طبيـب تشـكو مراوده وتستغيث ، الجفون والحدق
شيافه (١) تطرد الشفاء اذا مر بعيني وكحـــله الأرق
وان تمـادى عـلى زرتـكم وقائداى العصى والحـلق

ومن قصيدة يهجو فيها جماعة اخوة ويستثنى واحدا منهم بالمدح :

هم خبث الحديد وأنت مما يصفىجوهر السيف اليمانى
وان أورى زنادكـم شرارا فبين النــار بون والدخان
وان جمعت أنابيبـا قنـاة فأين الكعبمن رأسالسنان!

ومن قصيدة يعتذر فيها لعز الدولة عن الاشتراك فى احدى الحملات العسكرية :

قل لمـولاى اذ دعانى لأمر قمت فيـه له مقـام العبيد
ضعفت حيلتى وقل غنـائى ودنــت غايتى ورث جديدى
وكأنى عـلى بعـير ترانى آخر الناس فى لفيف الحشود
حيث لا يتقى لسانى ولا يثـ نى عنان المغير عنى نشيدى
ان رأيى اذا يسـدد نحوى سهم رام لغير رأى سـديد
فاذا ما قتلت كنت خليقـا بدخولى جهنمـا وخـلودى
فأقلنى عثارها وابق للمجد وكبت العدا وغيظ الحسود

وشعره الغزلى حافل بالمعانى المبتكرة الجميلة ومن هذا الشعر قوله:

وأغيـد ما لوجنتـه وفيـه ولا ما فى زجاجتـه نظـير
سقى فأدار من عينيه أخرى لأمر ما تنوعت الخمور

وقوله من قصيدة :

ما باله يجفـو وقد زعـم الورى ان الندى يختص بالوجه النـدى
لا تخدعنـك وجنـــة محمرة رقت ففى اليـاقوت طبـع الجلمد
وزعمت أنى لست من أهل الهوى صـبا فقـل ما شئته .. وتقلد
والله ما أبصرت يومـــا أبيضـــا منـذ ابتليت بحب طرف أسـود

---

(١) الشياف : خامات العلاج .

وكذلك قوله :

كم ليلة نادمت فى ظلمائها بدرا وشمس الكأس مطلع زنده
مشمولة ياليت رقة طبعها فى قلبه وصفاءها فى وده
فكأنها من ريقه ، وحبابها من ثغره ، وشعاعها من خده

هذا وتقف أمامنا قلة ما ورد عن ابن مكنسة فى المراجع التى تحت أيدينا ، عن الوفاء بما يستحقه من عناية فى ايجاد ترجمة تتناول جوانب حياته وما غمض منها بالايضاح فانه مع ماله من شعر رائع لم ينل ما يستحقه من عناية الباحثين ولذلك نرى أغلب تراجمه فى كتب الأدب عبارة عن اختيارات لفقرات من شعره تنتهى بتاريخ وفاته ، ولم يتوسع فى الترجمة له نسبيا ـ فيما أعلمه ـ الا العماد الاصفهانى حيث نقل ـ فيما أعتقد ـ عن الرسالة المصرية لأبى الصلت ، قصة نواسيات ابن مكنسة ، اذ هما ينقلان فى كتابيهما وفى أسلوب متشابه بعض الحوادث الدالة على ذلك ، ويقولان انه كان على صلة بعز الدولة بن فائق ثم يستشهدان بطائفة من شعره الذى تغزل فيه بالمذكر ..

وقد يكون هذا صحيحا وقد لا نجد فيما نقرأ له من غزل غير هذا الاتجاه ، الا أننا نحب أن نضيف الى هذا أن ذلك اللون من الغزل كان السمة الغالبة على شعر الحب فى عصره حتى ولو لم يكن أصحابه من النواسيين .

ومع ذلك فاننا نورد هنا بعض النماذج الأخرى التى يمكن أن يرى فيها من يساير العماد وأمية فيما يرويانه ، دليلا على صحة ما أثبتاه عنه. فمن ذلك قوله يصف غلاما فى ثوب أزرق :

مر بنا فى ثوبه الأزرق كبدر تم لاح فى المشرق
لا بارك الرحمن فيمن رأى حسن عذاريه ولم يعشق

وقوله فى غلام مريض :

وقالوا براه السقم فاعتل جسمه عساه يرى فى الصبر عن حبه عذرا
اذا كنت أهوى خصره لنحوله أأسلوه لما صار أجمعه .. خصرا ؟

وقوله :

لم أر قبل شعره ووجهه ليلا على ضوء الصباح عسعسا
والسكر فى وجنته وطرفه يفتح وردا أو يغض نرجسا

وقوله من قصيدة أخرى :

وعسكري أبدا حيثما تلقاه يلقاك بكل السلاح
حاجبه قوس وأجفانه نبل وعطفاه تثنى الرماح
في لحظه سحر وفي خده ورد وفي فيه أقاح وراح
راح . وفعل الراح فيه كما يفعل بالغصن نسيم الرياح
شققت ثوب الصبر من بعده فليعذل العاذل وليلح لاح ..

هذا وقد توفي أبو الطاهر اسماعيل بن مكنسة سنة ٥١٠ هـ .

ظافر الحداد

نشأ ظافر الحداد بالاسكندرية نشأة شعبية وتذوق الأدب واشتغل بنظم الشعر فقربه هذا الى مجالس كبار العلماء فى عهده وقد استفاد كثيرا من صحبته للشاعر الأندلسى الكبير أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الذى مكث بالاسكندرية مدة طويلة أوجد خلالها حوله جوا أدبيا خلاقا . حتى اذا عاد أمية الى بلاده بقيت علاقات الود قائمة بينه وبين الكثيرين من أبناء المدينة وشعرائها ومنهم ظافر الحداد الذى نلمح فى قصائده التى بعث بها اليه آثارا رائعة لهذه الصداقة التى أثمرت أدبا ممتازا نشعر من خلاله بمدى استفادة ظافر من هذه الصداقة الطيبة وقد قدمنا فيما سبق من صفحات هذا البحث أبياتا يودعه فيها . وفيما يلى أجزاء من قصيدة أخرى بعث بها من الاسكندرية اليه حيث أقام فى المهدية وقد سلف أن استشهدنا بجزء آخر منها :

ألا هل لدائى من فراقك افراق
هو السم لكن فى لقائك ترياق
فيا شمس فضل غربت ولضوئها
على كل قطر بالمشارق اشراق
لك الخلق الجزل الرفيع طرازه
وأكثر أخلاق الخليقة أخلاق
لقد ضاءلتنى يا أبا الصلت مذ نأت
ديارك عن دارى هموم وأشواق
اذا عزنى اطفاؤها بمدامعى
جرت ولها ما بين جفنى احراق
أخى سيدى مولاى دعوة من صفا
وليس له من رق ودك اعتاق
لئن أبعدت ما بيننا شقة النوى
ومطرد طامى الغوارب خفاق
فعندى لك الود الملازم مثلما
تلازم أعناق الحمائم أطواق

ثم يتحسر على الليالى الممتعة التى كانا يقضيانها بالاسكندرية يتناشدان فيها الأشعار ، يسبحان فى أجواء من الأدب الأصيل .

ألا هل لأيامى بك الغر عودة ؟
كعهدى وثغر الثغر أشنب براق(١)
لئن قصرت كتبى فلا غرو أنه
لعائق عذر والمقادير أوهاق (٢)
كتبت وآفات البحار تردها
فان لم يكن رد على فاغراق
بحار بأحكام الرياح فانها
مفاتيح فى أبوابهن واغلاق
ومن لى أن أحظى اليك بنظرة
فيسكن مقلاق ويرقأ مهراق

ويدل الشعر القليل الذى وصلنا عن ظافر انه كان من أقوى شعراء الاسكندرية فى ذلك العصر الهاما ومن أبرعهم شاعرية استمع اليه وهو يكاد يذوب رقة فى قوله :

رحلوا فلولا أننى أرجو الاياب قضيت نحبى
والله ما فارقتهم لكننى فارقت .. قلبى

أوفى قوله :

يذم المحبون الرقيب وليت لى من الوصل ما يخشى عليه رقيب

وهو يتظرف فى تهنئة قاضى الاسكندرية بحلول شهر الصوم فيقول عن رمضان انه :

ما سار حولا كاملا الا ليسرق منك معنى

وقد كان ظافر هذا - كما أسلفنا - حدادا ، يصوغ الحديد كما يصوغ القول ويؤلف منهما ما يروق العين أو يروق السمع ، استمع معى الى هذين البيتين اللذين قالهما على لسان كرسى حديدى من صناعته :

انظر بعينك فى بديع صنائعى وعجيب تركيبى وحكمة صانعى
فكأننى كفا محب شبكت يوم الفراق أصابعا بأصابع

وربما أخذ من أسماعنا ، ونال من اعجابنا ما يبدو من أثر لمهنته فى

(١ ، ٢) مابين الرقمين = الأبيات الواردة لظافر فى توديع أمية .

صياغته لشعره ، فان أثر المهنة واضح فى الأبيات التالية وقد أبرزنا الكلمات أو المعانى المستمدة من هذه الصناعة :

كأن نجـــوم الليل لما تبلجت   توقـد جمـر فى خلال رمـاد

***

هلل فان هلال العيد عاد بمـا   قد كنت تعهد من لهو ومن طرب
كحلقة من لجين ذاب أكثرهـــا   لما تغـافل ملقيهـــا عن اللهب

***

وعشـــية أهدت لعينك منظرا   جاد السرور به لقبلـــك وافدا
روض كمخضر العـذار وجـدول   نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحســان تزينت   ولبســن من أثمـــارهن قلائدا

***

ما خلت أن النـار فى وجنـاته   حتى بدا فى عارضـــيه دخان

***

لولا لميال لنا بالبـان ســالفة   كررت من زفراتى فيه فاحترقـا

ومن شعره الرقيق الجياش بالعاطفة قوله :

عتبت ولكننى لا أعى   وأين ملامك من مســـمعى
وما قـدر عتبك حتى يزيل غرا   مـا تمكن من أضـــلعى
ومـا دام لومك الا وأنت تقـد   ر آن جنـــانى معى
مضى كى يودع ســـكانه   غـداة الفـراق فلم يرجع

ومن قصيدة أخرى تجمع بين البساطة والرقة قوله :

لا فرق بينكم وبين فـــؤادى   فى حـال قربى منكم وبعـادى
فلقـــد حببتكم على علاتـــكم   كمحبـــة الآبـاء .. للأولاد
ونزلتمو منى وان لم تنصــفوا   بمنازل الأرواح فى الأجســـاد
ورجوت سلوانا بسوء صـنيعكم عندى فصـــار ذريعـــة لودادى
قد كنت اقنع بالخيـال لو انكم   لم ترحلوا يوم النوى برقـــادى

ومن أبيات له يتحسر فيها على الشباب :

أسفى على ورد الشـــباب الزائل   أســـفا يطول عليه عض أناملى
ولى فلا طمع لعطفة هــــاجر   منـــه ولا أمل لأوبة راحـل

ولقد أسلفنا الكثير من شعره فى الاستشهادات العديدة الماضـية كما أوردنا قصته مع السعيد بن ظافر حاكم الاسكندرية والتى تدل على سرعة بديهته وقدرته على ارتجال النظم .

هذا وتوفى ظافر الحداد سنة ٥٢٩ هـ .

ابن قلاقس

نشأ ابن قلاقس أبو الفتح نصر الله بن مخلوف اللخمى السكندرى نشأة علمية دينية وأخذ عن علماء الاسكندرية المشهورة يومئذ بمدارسها الدينية ثم عين فى احدى الوظائف الرسمية واتصـــل بالحكام والوزراء يمدحهم .

ولقد كان كثير الرحلات والاسفار ، نرى ظلالا من هذا الاتجـــاه فى ديوان شعره الذى يمثل اتجاهاته المختلفة .

زار صقلية بعد أن انتزعها النورمانديون من أيدى العرب ونظم فيها شعرا منه هذان البيتان :

بلد اعـــارته الحمامة طوقهـــا   وكساه حلة ريشه الطـــاووس
فكانما الأنوار فيه ســـــلافة   وكأن ســـــاحات الديار كئوس

كما زار اليمن وكثيرا من البلاد العربية ليرضى فى نفسه نزعـــة التجوال والتنقل فى البلاد ، ومن شعره الذى يدل على هـــذه النزعة قوله فى مطلع قصيدة :

سافر اذا ما شـــئت قـــدرا   ســـــار الهلال فصار بدرا
والمـــاء يكسب مـــا جـــرى   طيبـــا ويخبث ما اســـتقرا
وبنقلة الـــــدرر النقيـــــة   بدلت بالبحـــر .. نحــــرا

فاذا ما تناولنا نماذج أخرى من شعره لنستشف منها بعض ملامحه طالعتنا هذه الأبيات :

قم هات جامك شمسا عند مصطبح
وخل كأســـك نجما عنـــد مغتبق
هب النسيم وهب الصـــبح فاشـــتركا
فى نكهة من نسيم الروضـــة العبق
وبت بالكأس أغنى النـــاس كلهـــم
فالخمر من عســـجد والكأس من ورق
حبابهـــا وأحـــاديثى ومبســـمه
ثـــلاثة كلهـــا من لؤلؤ نســـق

وأحار عندئذ فأسأل نفسى ، أيمكن أن يكون هذا الشعر صدى لحياة ابن قلاقس فعلا ؟

أم أنه من باب ترويض القول الذى يلجأ اليه بعض الشعراء أحيانا راسمين بأخيلتهم أشكالا لما حرموا منه فى واقعهم ؟

وكدت أقول بالايجاب عن هذا السؤال الأخير ، فالرجل فيما يروى عنه ذو ثقافة دينية أظلها من انطلاقه ، لولا ان هناك نماذج أخرى من شعره ـ عرضنا بعضها فيما سبق ـ تصف لنا ألوانا من هذا اللهو فيها حيوية التجربة وحرارة الواقع ، ترجح الرأى القائل ، ان الموصوفات التى تناولها الشاعر ترتبط بالكثير من حقائق حياته ..

وحتى اذا لم يكن هذا الرأى صحيحا فان الذى لا شك فيه ان مجتمع شاعرنا لم تكن تنقصه هذه الألوان وان هذا الشعر كان صدى منظوما لها ..

بقى ان نتتبع بعض الصور والتعبيرات التى غلبته نشأته العلمية والفقهية على اصطناعها ، فسرت فيها بعض كلمات وتعابير صدرت من ينابيع ثقافته وبيئته كهذه التى نجدها فى النماذج التالية :

رقيم خد نام عن ساهر ... ما أجدر النوم بأهل الرقيم

***

وكم قال للصهباء انى حالف ... فقالت له الصهباء انك **حانث**
وما العيش الا للذى هو ما كث ... على غيه أو للذى هو ناكث

***

اقلعت والبحر قد لانت شكائمه ... جدا وأقلع عن موج وازباد
فعاد ـ لاعاد ـ ذا ريح مدمرة ... كأنها **أخت تلك الريح فى عاد**
وقد رأيت به الأشراط قائمة ... لأن أمواجه تجرى باطراد
ولا تلاوة الا ما نكرره ... **من مبتدا النحل أو من منتهى صاد**
ونحن فى منزل يسرى بساكنه ... فاسمع حديث مقيم بيته غاد
أبيت ان بت منه فى مصورة ... من ضيق لحد ومن **اظلام الحاد**
لا يستقر لنا جنب بمضجعه ... كان حالاتنا **حالات عباد**
فكم يعفر خدا غير منعفر ... وكم يخر جبين غير **سجاد**
حتى كأنا وكف النوء يقلقنا ... دراهم قلبتها كف نقاد

فاننا نقرأ فى هذه المختارات كلمات أهل الرقيم وقوم عاد واشراط الساعة ومبتدا النحل ومنتهى صاد والحنث والنكث والالحاد وحالات العباد الى غير ذلك .

كما يطالعنا الكثير من هذه الكلمات والتعبيرات فى ديوانه وهذا كله مما يدخل فى صناعة الفقه والجدل الدينى أكثر مما يدخل فى صناعة الشعر .

وشاعرنا جم الوفاء لشيوخه ويطالعك فى ديوانه بالكثير من مدائحه فيهم ، ومن شعره فى شيخه الحافظ السلفى هذه الأبيات :

وجبين كشارق الشمس يهدى — بسناه من أتلفته الطريق
شيم ما جرت على خاطر الدهر — ولا حاز مثلها مخلوق
أيها الحافظ الذى حفظ الدين — فما للهوى له تطريق
بك يستعذب الصيام ويهوى — الفطر للناظرين والتشريق

ولقد كان أغلب اقامة شاعرنا بالاسكندرية ولهذا أجاد وصف السفن التى كان يراها غادية رائحة فى مينائها الكبير ، وكذلك كان يشهدها وهى تصنع على شواطىء المدينة ، هذا فضلا عن تأثره بركوبها فى رحلاته العديدة ومن جيد وصفه لها هذه الأبيات :

كل نون من المراكب فيها — ألفات مصفوفة للصوارى
تقسم الماء والهواء لساق — وجناح من عائم طيار
وهى ضدان من جوانح ليل — قد أقيمت ومن جناحى نهار
صورة كالفيول لولا قلوع — أبرزتها فى صورة الاطيار

فاذا انتقلنا معه فى زيارة للنيل وشاءت شاعريته أن يصف لنا غروب الشمس فانه يمتعنا بأمثال هذه الصورة الرائعة :

أنظر الى الشمس فوق النيل غاربة
وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعا منه يخلفها
كأنما احترقت بالماء فى الغرق
وللهلال فهل وافى لينقذها
فى اثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

على انه يلفت نظرنا بانسانيته العالية فى قصيدته الدالية التى استشهدنا بها قبل قليل ، ذلك اننا نجد فيها روح الأخوة التى ربطت بينه وبين رفاق السفينة على رغم اختلاف جنسياتهم ، كما اننا نحس احتراقه شوقا الى مدينته الجميلة ـ الاسكندرية ـ والى معالمها العديدة كالمنارة والباب القديم بل ونصل معه الى قمة الشعور بالمشاركة الانسانية عندما يكون هذا المعلم ، « كنيسة من كنائس النصارى » وشاعرنا كما نعرف مسلم وذو ثقافة اسلامية ...

يا اخوتى ولنا من ودنا نسب   على تباين آباء وأجداد
متى تنور آفاق المنارة لى   بكوكب فى ظلام الليل وقاد
وأستمد من الباب القديم هوى   عن الكنيسة فيه جل اسنادى

وقبل أن نختتم هذه الصورة الموجزة لشاعرنا القديم نحب أن نشير الى قصيدته المشهورة والتى سبق لنا أن أشرنا اليها والتى مطلعها :

سافر اذا ما شئت قدرا   سار الهلال فصار بدرا

فانها أوفر قصائده دلالة على نفسيته وتصويرا لحياته ونحن اذ نجتزىء منها الأبيات التالية انما نحاول بقدر الطاقة أن نستكمل الصورة التى نريد رسمها للشاعر الشاب ...

وصلا اذا امتلأت يداك   فان هما خلتا فهجرا
فالبدر أنفق نوره   لما بدا ثم استسرا
مدت الى الأربعون يدا   وقد قهقرت عشرا (١)
واستحدثت فى لمتى   نقطا فهلا كن حبرا
ما قلت أف .. فانها   شرر بأف .. يعود جبرا
وكفاك انى ان نظرت لها   نظرت النجم ظهرا (٢)
كان الشباب الغض ليلا   فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بى الزمان كما   اشتهى بطنا وظهرا
فبما قتلت صروفه   وقتلته جلدا وصبرا
غاض الوفاء وفاض ما   ء الغدر أنهارا وغدرا
فانظر بعينك هل ترى   عرفا وليس تراه نكرا ؟
خلق جرى من آدم   فى نسله وهلم جرا

ونشهد فى البيتين التاليين من هذه المقطوعة سمة من سمات السكندريين الباقية الى الآن ، وهى الجرأة والاستهانة بالصعاب ، ذلك حيث يقول :

ومروعى بالبحر يحـ   ـسب اننى ارتاع بحرا
أو ما درى انى بتسـ   ـهيل المصاعب منه أدرى ؟

هذا وقد توفى ابن قلاقس فى أثناء رحلة له « بعيذاب » وهى بلدة على شاطىء البحر الأحمر سنة ٥٦٧ هـ عن اثنين وثلاثين عاما تقريبا .

وله ديوان شعر بالمكتبة الأهلية بباريس وله كذلك ديوان مختصر نشره الشاعر خليل مطران بالاسكندرية منذ ستين سنة .

---

(١) أى أنه فى الثلاثين من عمره .

(٢) المثل البلدى يقول : «شاف النجوم فى الظهر» ويضرب فيمن قاسى الكثير .

المراجع الخاصة بالقسم الأول

١ ـ الكتب

١ ـ مصر والشرق الأدنى القديم . — تاليف الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل .

٢ ـ معارك الاسكندرية . — تأليف الأستاذ الدكتور صديق شيبوب .

٣ ـ الاوديسة . — تأليف هوميروس ترجمة الأستاذ أمين سلامة .

٤ ـ معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية .

٥ ـ مصر البطلمية . — تأليف الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى طبعة أولى .

٦ ـ شعر الرعاة . — ترجمة الأستاذ محمد صقر خفاجه .

٧ ـ شعر الاسكندرية . — ترجمة الأستاذ محمد صقر خفاجه .

٨ ـ الاسكندر الأكبر . — تأليف الأستاذ عزيز خانكى .

٩ ـ البحر المتوسط . — تأليف أميل لودفيج ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .

١٠ ـ تاريخ الاسكندرية . — تأليف أساتذة قسم التاريخ بكلية آداب الاسكندرية .

١١ ـ تاريخ الاسكندرية . — تأليف الدكتور السيد عبد العزيز سالم .

١٢- صفحة من تاريخ القبط — تأليف مجموعة من الباحثين باشراف الدكتور مراد كامل

١٣- البصير فى خمسين سنة — تأليف مجموعة من الباحثين باشراف جريدة البصير .

١٤- مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى . — ترجمة الاستاذين الدكتورين محمد عواد حسين وعبد اللطيف أحمد .

١٥- قصة الحضارة تأليف وول ديورانت تر . — ترجمة الأستاذ محمد بدران وآخرين .

١٦- تاريخ الأمة القبطية . — تأليف ل . بوتشر ترجمة مجلة المقتطف .

١٧- موجز تاريخ القبط . — تأليف وليم ورل ترجمة باشراف الدكتور مراد كامل .

١٨- فتح العرب لمصر . — تأليف بطلر ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد .

١٩- مصر والامبراطورية الرومانية . — تأليف الدكتور عبد اللطيف أحمد على .

٢٠- فتوح مصر . — تأليف ابن عبد الحكم .

٢١- الخطط . — للمقريزى .

٢٢- مصر فى عهد الولاة . — للدكتورة سيدة الكاشف .

٢٣- الأدب فى عهد الولاة . — للدكتور محمد كامل حسين .

٢٤- حسن المحاضرة . — للسيوطى .

٢٥- جامعة الاسكندرية . — للدكتور ابراهيم جمعة .

٢ ـ الصحف والمجلات :

١ ـ البصير عدد ٧ من أكتوبر ١٩٦١ مقال للأستاذ أندريه أندراوس .

٢ ـ المجلد الخامس من مجلة كلية آداب الاسكندرية مقال للأستاذ الدكتور حسن عون .

٣ ـ الحولية الخامسة لكلية آداب عين شمس مقال للأستاذ الدكتور محمد محمود السلاموني .

٤ ـ مجلة كلية آداب الاسكندرية العدد ١٥ مقال للأستاذ الدكتور محمد محمود السلاموني .

٥ ـ مقال للأستاذ صديق شيبوب عن تكوين جمهورية أندلسية بالاسكندرية .

● تفضل الأستاذان الفاضلان الدكتور حسن عون الأستاذ بجامعة الاسكندرية والدكتور محمد محمود السلاموني الأستاذ بجامعة عين شمس والمنتدب بجامعة الاسكندرية بابداء بعض الملاحظات التى استفدت منها كثيرا فى كتابة هذا القسم من البحث .

المراجع الخاصة بالقسم الثانى

المراجع القديمة :

١ ـ جريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر (جزآن) .
تأليف العماد الاصفهانى وتحقيق الأستاذ أحمد أمين وآخرين .

٢ ـ الرسالة المصرية لأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت .
بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان .

٤ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى .

٥ ـ بدائع البدائه لعلى بن ظافر .

٦ ـ معجم الأدباء (ارشاد الاريب فى معرفة الأديب) لياقوت الرومى
نشرة محمد فريد رفاعى .

٧ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى .

٨ ـ رحلة ابن جبير .

٩ ـ ديوان ابن قلاقس نشر خليل مطران .

١٠ ـ مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

١١ ـ شذرات الذهب فى اخبار من ذهب للعماد الحنبلى .

١٢ ـ مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب لابن واصل .
نشر الدكتور جمال الدين الشيال .

١٣ ـ الغصون اليانعة فى محاسن المائة السابعة لموسى بن سعيد .
بتحقيق الأستاذ ابراهيم الابيارى .

١٤ ـ نفح الطيب فى غصـــن الاندلس الرطيب الأجـــزاء ٢ و ٣ و ٤
لابن المعرى .

١٥ـ حسن المحاضرة للسيوطى ٠
١٦ـ البداية والنهاية لابن الاثير ٠
١٧ـ صبح الاعشى للقلقشندى ٠
١٨ـ الطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى ٠
١٩ـ فتوح مصر لابن عبد الحكم ٠
٢٠ـ خطط المقريزى ٠

المراجع الجديدة :

١ ـ صفحة من تاريخ القبط باشراف الدكتور مراد كامل ٠
٢ ـ فتح العرب لمصر تأليف الدكتور بتلرو ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ٠
٣ ـ الاسكندرية للدكتور السيد عبد العزيز سالم ٠
٤ ـ معارك الاسكندرية للأستاذ صديق شيبوب ٠
٥ ـ الحياة الأدبية فى عهد الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوى ٠
٦ ـ أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ٠
٧ ـ أدب الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والايوبى للأستاذ أحمد محمد النجار رسالة مخطوطة بكلية الآداب بالاسكندرية نال بها صاحبها جائزة واصف غالى ٠
٨ ـ مصر فى عهد الولاة للدكتورة سيدة الكاشف ٠
٩ ـ الأدب فى عهد الولاة للدكتور محمد كامل حسين ٠
١٠ـ مقال للأستاذ حسن عبد الوهاب عن الاسكندرية فى العصر الاسلامى ٠
(عدد يناير ١٩٤٧ من مجلة الكتاب) ٠

فهرس

الدار القومية للطباعة والنشر